ردود على شبهات حول الإسلام

كتبه
مصطفى العدوي

مكتبة مكة

ردود على

شبهات حول الإسلام

تأليف

أبي عبد الله

مصطفى بن العدوي


بسم الله الرحمن الرحيم

ردود على شبهات
حول الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب المصرية

إدارة الشئون الفنية

العدوي، أبي عبد الله مصطفى

الردود على شبهات حول الإسلام / تأليف أبي عبد الله مصطفى بن العدوي. - ط١ - طنطا: مكتبة مكة، ٢٠٠٧

٢٠٨ ص؛ ٢٤ سم.

١- الإسلام - دفع مطاعن

أ- العنوان ٢١٦

ملحوظة هذه البطاقة تطبع خلف صفحة العنوان

هذه البيانات لا تنطبق إلا على هذا العنوان ولا تعمم فى عناوين أخرى.

رقم الإيداع ٥٥٨٦/٢٠٠٧

مكتبة مكة

طنطا - جمهورية مصر العربية

٠١٢٣٤٨٩٨٥٣ - ٠٤٠٣٢٩٥٧٤٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمدهُ ونستعينُه ونستغفرهُ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا مَنْ يهدِهِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدهُ ورسولهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

[آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

[النساء: ١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

[الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

وبعد:

أيها الأخوة - بارك الله فيكم - بين يدي حديثي معكم، أُذكِّر نفسي وإياكم بشيء من فضل الصلاة على النبي محمد ﷺ، لعلنا نحظى بهذا الفضل، ونرجع بتلك الغنيمة والأجر، أجر الصلاة على هذا النبي الكريم - صلوات ربي وسلامه عليه -.

وابتداءً: فصلاتنا على رسولنا محمد ﷺ امتثال منا لأمر الله ﷻ، فكما أننا أُمرنا بالصلاة والصوم والصدقة... وغير ذلك، فقد أُمرنا بالصلاة على نبينا محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وجعل الله أجرًا في الصلاة عليه، ففي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»(١).

وفي الحديث الثابت أيضًا عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ؛ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»(٢).

وقال ﷺ: «البَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصلِّ عَلَيَّ»(٣).

فبارك الله فيكم إذا سمعتم ذكر نبيكم محمد ﷺ فبادروا بالصلاة عليه.

(١) مسلم (٤/ ١٢٧).
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢/ ٥٣٤).
(٣) الترمذي (٣٥٤٦) بسند حسن.

فإذا صليتم على نبيكم ﷺ في هذا المجلس صلاة واحدة؛ صلى الله بها عليكم عشرًا، وإذا صليتم عليه عشر صلوات، صلى الله بها مائة صلاة، فاحرصوا على هذا الفضل، واغتنموا ذلك الأجر.

تقبل الله منا ومنكم، وأعاننا الله وإياكم!!!

وبعد:

أيها الأخوة... فهذه بعض المحاضرات ألقيتها في بعض مساجد مصر، وقد طلب مني إخواني - حفظهم الله - أن تصاغ في كتيب صغير، لعل الله أن ينفع بها ويهدي بها ضالًا، ويكشف بها عن متشكك مرتاب.

وصلِّ اللهم على نبينا محمد وسلم.

كتبه

أبو عبد الله

مصطفى بن العدوي

مصر - الدقهلية - منية سمنود

طليعةٌ

أيها الأخوة - بارك الله فيكم - لا يخفى عليكم ما تمرُّ به أمتكم - أمة محمد - ﷺ من ابتلاءات تتلوها ابتلاءات، وفتن تتبعها فتن!!

لا يخفى عليكم ما تمرُّ به أمتنا من اعتداءات المعتدين، وكيد الكائدين.

❑ اعتداءٌ على بعض دولها، وسلبٌ ونهبٌ لثرواتها، وهدمٌ لبُنيانها وكيانها، وصدق الله إذ قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

❑ حربٌ إعلامية لإفساد شبابها وفتيانها وفتياتها.

وصدق الله إذ قال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧].

❑ وحربٌ فكرية لتشكيك المسلمين في دينهم، مع ما يصاحب ذلك من بذاءات وجهالات وفحش من القول والبهتان والافتراء، وهذا ليس بجديد على أهل الكفر، بل هو دأبهم وشأنهم في كل زمان ومكان مع أهل الإيمان ومع القرآن، ومع النبي - عليه الصلاة والسلام -.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

هذه بعض صور الكيد والمكر الذي يكيد به أعداء الإسلام للمسلمين!!!.

وثَمَّ صور أخرى يكيد بها أعداء الله لأهل الإسلام، وأهل الإيمان والاستقامة، فما من سبيل يجدونه موصلًا إلى الله ومرضاته إلا ووقفوا عنده بالمرصاد لمن أراد الاستقامة وسلك سبيلها.

❑ وكما قال نبي الله شعيب – عليه السلام – لقومه: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

❑ بل وكما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَقَالَ: رَسُولُ الله ﷺ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ» (٤).

❑ إنه مكر الليل والنهار من شياطين الإنس والجن لإغواء الناس وإضلالهم وصرفهم عن الحق إلى الباطل، وعن الإيمان والطاعة إلى الكفر والتمرد والعصيان.

(٤) **صحيح**: أخرجه النسائي (٣٢٩- ٣٣٠).

ولكن لا يخفى عليكم - بارك الله فيكم - أنه ومع كيد الكائدين ومكر الماكرين، فإن الله ﷻ يحفظ دينه وينصر أولياءه، ويُبطل كيد الكائدين، ويُذهب مكر الماكرين، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

❑ لقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

❑ وقال سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

❑ وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

أيها الأخوة: إن العاقبة دائمًا للتقوى، وللمتقين!!

❑ ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

❑ وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾ [المجادلة: ٢١].

❑ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١: ١٧٣].

❑ وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣].

ولقد قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ

أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ» (٥).

وفي رواية عند مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»** (٦).

وفي ثالثة (٧) عند مسلم أيضًا: « **لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا، يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»**.

إنها وعودٌ تتحقق:

- لا شك عندنا في تحققها ولا مرية ولا ارتياب!!
- لا تختلج نفوسنا بغير ذلك، ولا يعتريها غير ذلك!!.
- موقنون بنصر الله، وبوعد الله، والحمد لله!!

وهذه الأدلة التي ذكرناها - ولله الحمد - تحمل البُشريات، وتدفع عنا اليأس والقنوط، وتنفي عنا - بإذن الله - الجزع والهلع!!.

ولكن كما هو معهودٌ ومعروف أن الأمم تُدال على غيرِها مرةً وتنتصر! ويدال عليها غيرُها مرة، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وكما قال ﷻ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ

(٥) البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢١).
(٦) مسلم (١٩٢٠).
(٧) مسلم (حديث ١٩٢٢) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه مرفوعًا.

ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وكما قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤].

وقد قال سبحانه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الطارق: ١٩].

قال بعض العلماء في تفسيرها: لتتغيرن عليكم الأمور والأحوال، فمرة أنتم في عافية، ومرة في ابتلاء، ومرة في فقر وشدة، ومرة في سعة وغنى. . . إلى غير ذلك.

وهذا: وفي سؤالات هرقل التي وجهها لأبي سفيان بن حرب، وهو يسأله عن رسول الله ﷺ وعن صفته، وحاله معهم، وكان هرقل كافرًا وكذا كان أبو سفيان وقتها كافرًا، فقال له هرقل:

فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ قُلْتُ (أبو سفيان): نَعَمْ.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. . . . الحديث[٨] .

وفيه أن هرقل قال له: فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبتَلى ثُمَّ تَكُونُ لهُم العَاقِبةُ.

فدائمًا وكما أسلفنا تمر بالأمم محنٌ تتلوها محن، ودائمًا العاقبة للتقوى.

فأقول مطمئنًا نفسي وإخواني:

* إن الذي حفظ نبينا محمدًا ﷺ يوم أن أراده المشركون بسوء، يوم أن

(٨) البخاري حديث رقم (٧)، وحديث (٢٩٤١).

أرادوا قتله، واجتمعت كلمتهم على ذلك، وسلمه الله منهم -يوم هجرته- هو الذي سينصر دينه وأولياءه.

* والذي حفظ هذا النبي الكريم، إذ هو في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، هو الذي سينصر هذا الدين ويحفظ أولياءه.

لقد كان - صلوات الله وسلامه عليه - في الغار مع صاحبه أبي بكر، وأبو بكر يقول: يَا رَسُولَ الله، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا. قَالَ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا»[٩].

لقد نصر الله هذا النبي الكريم يوم بدر، وحفظه يوم أُحُد، وسلَّمه يوم حُنين، ونصر دينه، وأنجز له ما وعده، وفتحت له البلاد، ودخل الناس في دين الله أفواجًا!

وماذا كان يملك هذا الرسول الكريم من السلاح والعتاد أمام جحافل الشر وأهل الفساد من الفرس والروم وغيرهم؟!!

فأبشروا معشر المسلمين، وأيقنوا بنصر الله، فالله مع الصابرين ومع المحسنين ومع المتقين.

لقد تكفل الله ﷻ بحفظ أنبيائه، وتكفل بحفظ أوليائه، وتكفل بالدفاع عن أهل الإيمان.

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

---

(٩) البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

وحتى نستجلب نصر الله لنا لابد من بذل جهد به يحفظنا ربنا.

وقد قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

إن البلاغ عن الله وعن رسله والذب عن دين الله وعن سنن المرسلين من أعظم أسباب الحفظ التي يحفظ الله بها العبد. دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ استفيد منه: أن البلاغ سبب في العصمة والحفظ من الناس.

وكذلك قول النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: **«احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»**(١٠).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١: ١٧٣] يفيد أن الذي جنَّد نفسه لله سيُعينه الله على غلبة عدوه بإذن الله، وكذلك أحد الوجوه في تفسير قول الله تعالى لموسى وهارون -عليهما السلام-: ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

قال بعض المفسرين فيها: بتبليغكما آياتنا ستغلبون غيركما.

(١٠) **صحيح لشواهده**: أخرجه الترمذي (حديث ٢٥١٦).

فهذه كلها وغيرها نصوص دلت على أن الذي يُجند نفسه لله سينصره الله - سبحانه وتعالى -.

وقد قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقد يحظى المسلم بشرف الشهادة في سبيل الله، فهنالك الفوز العظيم في الآخرة - إن شاء الله -.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، قد يستوقف قارئًا فيقول: كيف ذلك وأمة محمد ﷺ تمرُّ بالذي تمرُّ به من المحن؟!!

فجواب أهل العلم عن الآية الكريمة من وجهين:

أحدهما: أن ذلك السبيل يوم القيامة.

الثاني: أن المراد بالسبيل: الحجة. أي: فلن يغلب الكفار المؤمنين بالحجة.

وكمزيد من الإيضاح:

فالمعنى - والله أعلم -: ولن يجعل الله للكافرين طريقًا إلى الشماتة بالمؤمنين يوم القيامة، وذلك أن الله ﷻ إذا عذب أهل الإيمان يوم القيامة وأدخلهم مدخل الكافرين شمت بهم الكافرون[١١]، وقالوا: ها أنتم صرتم الآن معنا، فحينئذ يجدون سبيلًا إلى تعييرهم.

---

(١١) وإن دخل بعض أهل الإسلام النار لذنوب ارتكبوها وجرائم اقترفوها، إلا أنهم لن يدخلوا مدخل الكافرين، ولن يعذبوا في دركات الكافرين، وليسوا كذلك في النار بمخلدين، بل مآلهم إلى الخروج منها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يعني: حجة يوم القيامة.

وذلك وعدٌ من الله للمؤمنين: أنه لن يدخل المنافقين مدخلهم من الجنة، ولا المؤمنين مدخل المنافقين، فيكون بذلك للكافرين على المؤمنين حجة بأن يقولوا لهم - إن أدخلوا مدخلهم -: ها أنتم كنتم في الدنيا أعداءنا، وكان المنافقون أولياءنا، وقد اجتمعتم في النار، فجمع بينكم وبين أوليائنا فأين الذي كنتم تزعمون أنكم تقاتلوننا من أجله في الدنيا؟

فذلك هو «السبيل» الذي وعد الله المؤمنين أن لا يجعلها عليهم للكافرين.

وقد قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: لا خلاف بينهم في أن معناه: «ولن يجعل الله للكافرين يومئذ على المؤمنين سبيلًا».

وأورد الطبري[١٢] من طرق عن الأعمش عن ذر عن يُسيع الحضرمي قال: كنت عند علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه - فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أرأيت قول الله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟

قال له علي: ادنُه، ادنُه! ثم قال: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

(١٢) انظر «الطبري» (١٠١٧٩ فما بعده) وهو صحيح عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يوم القيامة.

أما القرطبي رحمه الله فقد أورد عدة أقوال في تفسير الآية الكريمة:

منها: قول الطبري السابق: أن ذلك يوم القيامة، ونقل عن ابن عطية قوله: وبهذا قال جميع أهل التأويل.

الثاني: أن الله لا يجعل لهم سبيلًا يمحو به دولة المؤمنين، ويُذهب آثارهم ويستبيح بيضتهم؛ كما جاء في «صحيح مسلم» (١٣) من حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال: «**وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً، فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ - مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**».

الثالث: أن الله - سبحانه - لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا منه إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر ويتقاعدوا عن التوبة، فيكون تسليط العدو من قبلهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. قال ابن العربي: وهذا نفيس جدًا.

قلت: ويدل عليه قوله ﷺ في حديث ثوبان: «**حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ**

(١٣) مسلم (٢٨٨٩)، (٢٨٩٠).

بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا». وذلك أن «حتى» للغاية؛ فيقتضي ظاهر الكلام أنه لا يسلط عليهم عدوهم فيستبيحهم إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض، وسبي بعضهم لبعض، وقد وجد ذلك في هذه الأزمان بالفتن الواقعة بين المسلمين؛ فغلظت شوكة الكافرين واستولوا على بلاد المسلمين حتى لم يبق من الإسلام إلا أقله؛ فنسأل الله أن يتداركنا بعفوه ونصره ولطفه.



ردود على شبهات حول الإسلام

أيها الأخوة:

حديثنا - إن شاء الله تعالى - يتعلق بجانب من جوانب الدفاع عن هذا الدين، وعن سنة النبي الأمين محمد - عليه أفضل صلاة وأتم تسليم -.

يتعلق بدفع الشبهات التي يلقيها أعداء الإسلام على المسلمين ودحضها، وإزالة الشكوك التي يثيرها المشككون، ومحو الريب - بإذن الله -.

ولله الحمد، فإنا موقنون بأن: ﴿كَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

موقنون بأن حجة الله بالغة، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩].

❑فإذا اعترانا تقصير، فالتقصير منا نحن البشر!!!.

❑وإن اعترانا خطأ، فكلنا خطَّاءون!!.

❑وإن عجزنا عن البيان أو عن بعض البيان، فنحن بشر والعجز لنا ملازمٌ!!



تذكير بأصول مهمة

إخوتي - بارك الله فيكم - أُذكر نفسي وإياكم بأمور لابد منها وبأصول لابد من استحضارها بين يدي المحاضرة.

إنها أصول عامة لدرء الشبهات والفتن، ودحض الافتراءات والأباطيل، وبذكرها يتمكن الشخص - وبإذن الله - من الدفاع عن دينه، فضلًا عن كونه سيوجِّه - وبإذن الله - سهامًا صائبةً في صدور أعداء الإسلام!!

إخوتي هناك «أصلٌ أصيلٌ» لابد من استحضاره، ولابد من اعتقاده، هذا الأصل كلنا - كمسلمين - يعتقده والحمد لله، وكلنا نُقرُّ به، وإن اختلفنا في بعض المسائل الفقهية أو بعض الفروض.

هذا الأصل الأصيل هو «توحيد الله عز وجل»، أن الله واحد لا شريك له.

- ❏ فلْيُعلم أولًا: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١].
- ❏ قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].
- ❏ وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
- ❏ وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

❑ وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١: ٤].

نُقرُّ له بأن له الأسماء الحسنى، والصفات العُلى:

❑ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

❑ وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣].

❑ وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [الأنبياء: ٢٢].

❑ وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝١١١﴾ [الإسراء: ١١١].

❑ وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ [الإسراء: ٤٢].

وجاءت عن رسول الله ﷺ نصوص عِدة تؤكد هذا الأصل، وتُبين فضل من اعتقده، وفضل من ذكره وتلفظ به.

فابتداءً: الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله. . . . . الحديث[١٤]. قال ذلك نبي الله ﷺ.

(١٤) أخرجه مسلم (حديث ٨).

فهذا أصل الأصول عندنا كمسلمين، نتدين به، ولا نحيد عنه بحال من الأحوال - إن شاء الله -.

دلَّتنا على هذا الأصل الأصيل أدلة من كتاب ربنا سبحانه وتعالى، ومن سنة رسوله ﷺ - كما تقدم - وأرشدتنا إليه فطرنا التي فُطرنا عليها!!.

وأقرت بذلك قلوبنا وأفئدتنا - بحمد الله -.

ومن ثَمَّ نطقت به ألسنتُنا، وعملت بمقتضاه جوارحنا - ولله الحمد -.

هذا الأصل الأصيل هو الفارق والفيصل بيننا كمسلمين، وبين غيرنا من أهل الملل والنحل، فكل العالم في اتجاه، والمسلمون في اتجاه آخر!!

المسلمون يعبدون الله وحده لا شريك له، وينفون عنه الصاحبة والولد والند والمثل، ومن سواهم يعبدون آلهة أُخر، ويجعلون لله الشريك، أو الصاحبة والولد، على اختلاف بينهم في ذلك.

فمنهم من يعبد حجرًا، ومنهم من يعبد شجرًا، ومنهم من يعبد نجمًا أو شمسًا وقمرًا، ومنهم من يعبد وثنًا أو صنمًا أو شيطانًا أو هوى، بل ومنهم من يعبد فرجًا أو بقرةً أو ثورًا.

منهم من يزعم أن المسيح ابن الله، وغيرهم يزعمون أن المسيح هو الله، وغيرهم يزعمون أن الله والمسيح ومريم ثلاثة أقانيم في أقنوم واحد كذا زعموا كالإصبع - بزعمهم - ثلاث عُقل في إصبع واحد، ومنهم من فسَّر ذلك بأن الله إله ومريم إله وعيسى إله - تعالى الله عن شركهم علوًّا كبيرًا -.

ومنهم من زعم أن عزيرًا ابن الله... إلى غير ذلك من الترهات والأباطيل والأكاذيب والافتراءات!!!.

فالحمد لله، صراط الله المستقيم واحد، ونحن عليه سائرون إن شاء الله!!.

وإن تفرقت بغيرنا السبل!! وناءت بالآخرين الطرق!!.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والحمد لله شريعتنا هي التي شرعها لنا ربنا على لسان نبينا محمد ﷺ، ونحن عليها سائرون، وإن لعبت بغيرنا الأهواء!!

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

امتثلنا - ولله الحمد - أمر ربنا، إذ الله أمر فقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].

أصل آخر:

هناك أصل آخر نعتقده وندين به، وستأتي أيضًا أهميته، أو ستأتي أهمية معرفته عما قريب - إن شاء الله - ألا وهو:

❑ «**أن محمدًا ﷺ رسولٌ من عند الله**»، نقر بذلك ولا نتزحزح عن ذلك - بإذن الله - فنقر للنبي محمد ﷺ بالرسالة، وأنه رسول من عند الله

ليس برب، وليس بإله، إنما هو رسول من عند الله له حق المرسلين - صلوات الله وسلامه عليه -.

❑ **ونقر له بما ورد في كتاب ربنا أو بما ورد على لسانه هو ﷺ**، نُقرُّ له بأنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣،٤]، نسمع لهذا النبي ونطيع، ونصدقه تمام التصديق فيما يقول ويُخبر.

❑ **وكذلك نقرُّ بأمر ثالث ولا نتزحزح عنه أبدًا ألا وهو**: «أن هذا القرآن من عند الله، كتاب أنزله الله على نبيه محمد ﷺ بواسطة جبريل - عليه السلام -- ونقرُّ بأن هذا القرآن محفوظ بحفظ الله».

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١،٤٢] وهذه أصول.

❑ **ونقر بسائر أركان الإيمان**، فنؤمن بالغيب المتضمن الإيمان بالملائكة، المتضمن الإيمان بالقضاء والقدر، المتضمن الإيمان بوجود جنة ونار، وبوجود الشياطين، فكل ذلك نقرُّ به، وعلى هذا نسير كمسلمين، من شكَّ في ذلك كفر وخرج من هذا الدين!!

فعلى كل مسلم ابتداءً أن ينظر في إيمانه، وهل هو مقر بالذي ذُكر أم لا؟

وهذا أصل مهم «نحن عبيدٌ لله ﷻ».

أيها الأخوة - بارك الله فيكم - إننا كمسلمين لسنا بأحرار، نتكلم كيف شئنا، ونفعل ما أردنا، ونفكر فيما أردنا أن نفكر فيه!!.

بل نحن في كل ذلك مقيدون عبيد لله، فلا نتكلم إلا بالمأذون لنا فيه من الكلام، لا نتكلم ببذاءات تحت شعار الحرية، بل فلنقل خيرًا أو لنصمت كما علَّمنا رسول الله ﷺ ولا نخوض أبدًا مع الخائضين!!.

نعرض عن اللغو كما وصف ربنا أهل الإيمان بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ١: ٣].

نتكلم بطيب القول، ونتحدث بأحسن الحديث.

لقد قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فمن هذا المنطلق - أيها الأخوة - نتحدث مع غيرنا، نتحدث من منطلق كوننا عبيدًا لله ﷻ يتصرف فينا كيف يشاء، يأمرنا بما أراد، وينهانا عما يريد... ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].



مشروعية دفع الشبهات وإزالة الشكوك

أيها الإخوة - بارك الله فيكم - إننا ولله الحمد، ومع إيماننا بالله ﷻ واعتقادنا وحدانيته، وإيماننا برسولنا محمد ﷺ، وبالملائكة، والكتب، وسائر الرسل، وبالقدر خيره وشره.

ومع إيماننا بأن نبينا محمدًا ﷺ لا ينطق عن الهوى، ومع إيماننا بأن القرآن من عند الله، وما خالفه فهو باطل منكر!! ومع إيماننا بأن الله على كل شيء قدير !!.

مع ذلك كله ومع الإيمان بغيره من أركان إيماننا وأصوله وفروعه ينبغي أن ندفع الاشتباه الذي قد يرد على بعض الخلق، وعلى ضعفاء الإيمان، بل إن نفس المؤمن تطمئن بتواتر الأدلة وتتابعها.

وقد قال الخليل إبراهيم - عليه السلام -: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾»(١٥).

(١٥) البخاري (حديث ٣٣٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

وقال الحواريون لعيسى -عليه السلام- لما سألوا نزول المائدة من السماء: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١].

فيلزمنا مع طمأنينتنا أن نُطمئن الخلق، وندفع عنهم الشكوك والشبهات والريب، ونُبين لهم الحق ونُجليه لهم ونوضحه.

فدفع الاشتباه أمر مستحب، فقد يلبس على شخص أمره فيدفع عنه الاشتباه، وقد حدث في زمن النبي ﷺ أن قومًا أوردوا شبهًا على الإسلام والمسلمين، فدفعها النبي خير دفع، فلما ذهب المغيرة بن شعبة رضي الله عنه إلى اليمن إلى نجران وسأله نصارى نجران كيف في كتابكم: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٨] كيف تكون مريم ابنة عمران أختًا لهارون، وموسى بن عمران أخًا لهارون وبينهما مئات السنين أو آلاف السنين؟

يزعمون أن ذلك يعد تناقضًا، فرجع المغيرة إلى النبي ﷺ فسأله، قال ﷺ: «**إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين منهم**»، فدُفع الإشكال والحمد لله.

وها هو الحديث بذلك:

أخرج مسلم(١٦) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا

(١٦) مسلم (حديث ٢١٣٥).

وَكَذَا (١٧). فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ».

ومن ذلك: ما كان يصنعه ابن الزبعري على عهد رسول الله ﷺ

فقد كان يجلس في مجلس رسول الله ﷺ بعد أن ينصرف الرسول ﷺ من مجلسه فيورد الشبهات، فلما نزل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨] فقال بعد أن انصرف النبي ﷺ اليوم أغلب محمدًا، فهؤلاء النصارى يعبدون المسيح، وهؤلاء اليهود يعبدون عزيرًا، فهل عزيز والمسيح حصب جهنم؟ فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وها هو الحديث بذلك:

أخرجه الطحاوي (١٨) بسند يحسن لشواهده من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: آية في كتاب الله ﷻ لا يسألني الناس عنها ولا أدري أعرفوها فلا يسألوني عنها أم جهلوها فيسألوني عنها، فسُئل ما هي؟ قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ شق ذلك على أهل مكة، وقالوا: شتم محمد آلهتنا، فجاءهم ابن الزبعري فقال: ما شأنكم؟ قالوا: شتم محمد آلهتنا. قال: وما

---

(١٧) في رواية الطبري (٢٣٦٩١): «وقد علمتم ما كان بين عيسى وموسى».
(١٨) «مشكل الآثار» للطحاوي (١/ ٤٣١).

قال؟ قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ قال: ادعوه لي. فدُعي محمدٌ ﷺ فقال ابن الزبعري: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل ما عُبد من دون الله ؟ قال: «**بل لكل ما عُبد من دون الله** ﷺ. قال: فقال: خصمناه ورب هذه البنية. يا محمد، ألست تزعم أن عيسى عبد صالح وعزيرًا عبد صالح والملائكة عباد صالحون ؟ قال: «بلى». قال: فهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيرًا، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة. قال: فضج أهل مكة. فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ قال: ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الزخرف: ٥٧]، وهو الضجيج.

فالآيات السابقة فيمن رضي أن يُعبد من دون الله هو الذي سيكون حَصَبًا في جهنم مع عابديه، وكما قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨].

هذه الآية تدل على أن جميع المعبودات مع عابديها في النار. وقد أشارت آيات أُخر إلى أن بعض المعبودين كعيسى والملائكة ليسوا من أهل النار، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزخرف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

والجواب من وجهين:

الأول: أن هذه الآية لم تتناول الملائكة ولا عيسى، لتعبيره بـ[ما] الدالة على غير العاقل.

وقد أشار تعالى إلى هذا الجواب بقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]؛ لأنهم لو أنصفوا لما ادعوا دخول العقلاء في لفظ لا يتناولهم لغةً.

الثاني: أن الملائكة وعيسى، نصَّ الله على إخراجهم من هذا؛ دفعًا للتوهُّم، ولهذه الحجة الباطلة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١].

ولقد أورد شخص على ابن عباس ﵄ آيات يزعم أن بينها تعارضًا، فأورد قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الصافات: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]. كيف يحدث ذلك؟ وكيف الجمع بينهما؟

فآية أفادت أنهم يتساءلون، وأخرى نفت التساؤل.

وأورد آيات أُخر فيها إشكالات عنده.

❏ فأجابه ابن عباس ﵄ بإجابة بليغة نستفيد منها في الإجابة عن عشرات المسائل المشابهة.

❏ أجابه ابن عباس ﵄ بما حاصله أن المواقف يوم القيامة تتعدد، فيوم كألف سنة مما نعدُّ، تتعدد فيه الأحوال، فأحيانًا يؤذن لأقوام في الكلام، وأحيانًا ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

وهنالك وجه آخر أيضًا: مفهوم من إجابة ابن عباس أيضًا ألا وهو: أن جوارحهم لا تكتم شيئًا وإن كتمته أفواههم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١].

أخرج البخاري(١٩) في «صحيحه» من طريق المنهال عن سعيد قال:

قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي أَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ. قَالَ:

---

(١٩) البخاري في «التفسير» «تفسير سورة حم السجدة»، وصورته هناك صورة المعلق، إلا أن البخاري وصله بعد أن أورد متنه.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ١٢٥]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَالَ: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٠]، فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبلَ خَلْقِ الأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ٩:١١]، فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ.

وَقَالَ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى.

فَقَالَ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ فِي النَّفْخَةِ الْأُولَى، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ، ثُمَّ فِي النَّفْخَةِ الْآخِرَةِ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات: ٢٧].

❑ وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ، وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ تَعَالَوْا نَقُولُ: (لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ)، فَخُتِمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُكْتَمُ حَدِيثًا وَعِنْدَهُ: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [البقرة: ١٠٥].

❑ وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ

فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ وَدَحْوُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى، وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالْجِمَالَ وَالْآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، فَجُعِلَتِ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَخُلِقَتِ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ وَذَلِكَ قَوْلُهُ أَيْ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ فَلَا يَخْتَلِفْ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وقد أخرج الطبري بإسناد فيه كلام[٢٠] عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أشياء تختلف عليَّ في القرآن؟ فقال: ما هو؟ أشكٌّ في القرآن؟ قال: ليس بالشك، ولكنه اختلاف! قال: فهات ما اختلف عليك. قال: اسمع الله يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، وقد كتموا!

❑ فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله يغفر لأهل الإسلام ويغفر الذنوب، ولا يغفر شركًا، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، جحد المشركون فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، رجاء أن يغفر لهم، فختم على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند

(٢٠) الطبري (٩٥٢١) بإسناد فيه رجل لم يسم، ولكن يشهد له ما قبله.

ذلك: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «أضواء البيان»:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ بين في موضع آخر أن عدم الكتم المذكور هنا، إنما هو باعتبار إخبار أيديهم وأرجلهم بكل ما عملوا عند الختم على أفواههم إذا أنكروا شركهم ومعاصيهم، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥]، لا يتنافى قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ مع قوله عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقوله عنهم أيضًا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ [النحل: ٢٨]، وقوله عنهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ [غافر: ٧٤] للبيان الذي ذكرنا، والعلم عند الله.

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «التفسير الكبير»:

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟ والجواب من وجوه:

الأول: أن مواطن القيامة كثيرة، فموطن لا يتكلمون فيه وهو قوله: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وموطن يتكلمون فيه كقولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾، وقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فيكذبون في موطن، وفي موطن يعترفون على أنفسهم بالكفر ويسألون الرجعة وهو قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]، وآخر تلك المواطن

أن يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم وجلودهم، فنعوذ بالله من خزي ذلك اليوم.

الثاني: أن هذا الكتمان غير واقع، بل هو داخل في التمني على ما بيَّنا.

الثالث: أنهم لم يقصدوا الكتمان، وإنما أخبروا على حسب ما توهموا، وتقديره: والله ما كنا مشركين عند أنفسنا، بل مصيبين في ظنوننا حتى تحققنا الآن.

الرابع: في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

أنهم يودون لو تنطبق عليهم الأرض ولم يكونوا كتموا صفة محمد ﷺ ولا كفروا به ولا نافقوا، وعلى هذا؛ فالكتمان عائدٌ إلى ما كتموا من أمر محمد ﷺ.

وقال الشنقيطي رحمه الله: **في قوله:** ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾:

هذه الآية الكريمة تدل على أنهم لا أنساب بينهم يومئذ، وأنهم لا يتساءلون يوم القيامة، وقد جاءت آيات أُخر تدل على ثبوت الأنساب بينهم كقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ [عبس: ٣٤].

وآيات أخرى تدل على أنهم يتساءلون، كقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات:٢٧]

والجواب عن الأول: أن المراد بنفي الأنساب انقطاع فوائدها وآثارها التي كانت مترتبة عليها في الدنيا؛ من العواطف، والنفع، والصلات، والتفاخر بالآباء، لا نفي حقيقتها.

والجواب عن الثاني من ثلاثة أوجه:

الأول: أن نفي السؤال بعد النفخة الأولى وقبل الثانية، وإثباته بعدهما معًا.

الثاني: أن نفي السؤال عند اشتغالهم بالصعق والمحاسبة والجواز على الصراط، وإثباته فيما عدا ذلك. وهو عن السدِّي من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

الثالث: أن السؤال المنفي سؤال خاص، وهو سؤال بعضهم العفو من بعض فيما بينهم من الحقوق، لقنوطهم من الإعطاء، ولو كان المسئول أبًا أو ابنًا أو أمًّا أو زوجة... ذكر هذه الأوجه الثلاثة أيضًا صاحب «الإتقان».



بيان محاسن ديننا للناس

أيها الإخوة - بارك الله فيكم - ينبغي أن نُبين للناس محاسن ديننا، والحمد لله فديننا كله محاسن، فإن قومًا يشوشون على ديننا ويشوشون على قرآننا، ويتواصون فيما بينهم بذلك.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت: ٢٦].

ومن ثَمَّ فلقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة: ٦].

لقد بيَّن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعض محاسن ديننا للنجاشي أجمل بيان وأوضحها خير إيضاح، وفنَّد أقوال أهل الشرك والافتراء.

أخرج الإمام أحمد(٢١) في «مسنده» بسند حسن عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ قالت:

لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا الله لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا

(٢١) أحمد (٥/ ٢٩٠).

يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ، فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ قَالَتْ: فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، ثُمَّ قَالَا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ فَتُشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يُكَلِّمَهُمْ؛ فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ. فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَا لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ. قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلَامَهُمْ. فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ قَوْمُهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا فَلْيَرُدَّاهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ.

قَالَ: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ ثُمَّ قَالَ: لَا هَيْمُ اللهِ إِذَنْ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا وَلَا أُكَادُ قَوْمًا جَاوَرُونِي وَنَزَلُوا بِلَادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولَانِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي. قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللهِ مَا عَلَّمَنَا وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا جَاءُوهُ وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلَهُمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟ قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ

شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ.

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: ١].

قَالَتْ: فَبَكَى وَاللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا وَلَا أُكَادُ. قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللهِ لَأُنَبِّئَنَّهُمْ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُمْ، ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ. قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ: وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا قَالَ: وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ قَالَتْ: ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ. قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ، قَالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ

عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللهِ فِيهِ مَا قَالَ اللهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ. قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ، فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ.

فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللهِ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي - وَالسُّيُومُ الْآمِنُونَ - مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا ذَهَبًا، وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ. . . .» الحديث.

فيقال للكفار، ويقال لمن لُبِّس عليه أمره، واشتبهت عليه الأمور:

- ❑ ماذا تنقمون علينا في ديننا؟!! وماذا تنقمون على ما أنزله ربنا على نبينا ﷺ؟!!
- ❑ هل تنقمون علينا أننا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل من قبل؟!!
- ❑ هل تنقمون ﷺ علينا قولنا: إن الله واحد لا شريك له؟!!
- ❑ هل تنقمون علينا اعتقادنا أن الذي يكشف الضر هو الله؟!!
- ❑ واعتقادنا أن ما نحن فيه من خير إنما هو من الله!!
- ❑ هل تنقمون علينا قولنا: إن الله خالقنا ورازقنا ومحيينا ومميتنا؟!
- ❑ هل تنقمون علينا إقرارنا بأن الأسماء الحسنى كلها لله، وكذا الصفات العلى وصفات الجلال والإكرام والجمال!!

اقرءوا قرآننا :

اقرءوا قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ [الأعراف: ٣٢، ٣٣].

❑ ماذا تنقمون علينا، وكتاب ربنا كله نور.

ألم تقرءوا قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)﴾ [النور: ٣٠].

❑ انظروا كيف تحفظ لنا أعراضنا، وكيف تحفظ لنا أنسابنا، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا (٣٢)﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

❑ انظروا كيف تحفظ أموالنا، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾ [البقرة: ١٨٨].

❑ انظروا كيف تُحفظ الدماء. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

❑ انظروا كيف تُحفظ لنا عقولنا، وربنا يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]. ويقول: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣].

❑ انظروا كيف يُقام العدل في ديننا، ورب العزة يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

❑ فأي دين أجمل من هذا الدين!!.

❑ وأي خُلق كريم أجمل من هذا الخلق القويم!!.

❑ وفي الحقيقة أقول معتذرًا إلى الله ﷻ ثم إلى خلقه: إنني أعجز عن تعديد محاسن هذا الدين، فمحاسنه فوق الوصف لا يُحصيها محصٍ ولا يعدها عادٌّ، ولا يحصرها من تَجَشَّمَ حصرها!!.

❑ يكفي أن الله ﷻ يُدخلنا به الجنان، ويُحلُّ علينا باعتناقه الرضوان، ويقينا به النيران والخسران!!.

فالحمد لله أولًا وآخرًا.

رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا.



قواعد عامة تدفع بها الشبهات

وهذه قواعد عامة تدفع بها الشبهات، وتُزال بها الشكوك وتُمحى بها الرِّيب إن شاء الله، والمهتدي من هداه الله، ويمكننا وبتوفيق الله، أن نُلخص أسباب الإشكالات التي وقعت للبعض، ودفع تلك الإشكالات بصورة وجيزة فأقول ابتداءً:

* لجهلهم بقدرة الله أنكروا المعجزات وقلنا نحن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

* لإنكارهم أن القرآن من عند الله زعموا أن فيه تعارضًا، أما نحن فأيقنا أنه من عند الله ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصّلت: ٤٢].

* لجهلهم بلغة العرب أنكروا أمورًا في كتاب الله فطالبناهم بالرجوع إلى لغة العرب فقد نزل بلسان عربي مبين.

* لإنكارهم رسالة رسول الله ﷺ طعنوا فيه، وأما نحن فشهدنا - ولله الحمد - لهذا النبي بالنبوة والرسالة صلوات الله وسلامه عليه، ومن ثم صدقناه وآمنا به وأقررنا بما جاء به وبما قاله.

* لإنكارهم النسخ، زعموا أن هناك تعارضًا بين بعض الآيات.

* لجهلهم بعموم الشريعة ما استوعبوا فهم المسائل على وجهها.

* لجهلهم بأن الكلمات والمصطلحات تتعدد معانيها فزعموا أن

هناك اضطرابًا.

* اعتمدوا التأريخ المزور فردوا الوارد في كتاب الله، أما نحن فقدمنا كتاب الله على كل كتاب.

* اعتقدوا أنهم علموا كل شيء فأنكروا ما استنكرته عقولهم، أما نحن فاعتقدنا أن الله عليم ولا نحيط بشيء من علمه إلا بما شاء، فسلمنا لما قاله ربنا.

ثم أُورد، مستعينًا بالله، بشيءٍ من التفصيل ما يلي:

أما عن القرآن وما يثار حوله

الإيمان بأن القرآن من عند الله عزَّ وجل واليقين بذلك.

فنؤمن إيمانًا جازمًا لا مجال فيه لشك ولا لارتياب أنه من عند الله عزَّ وجل، نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام، على قلب رسولنا الكريم محمد ﷺ، وقد حفظه الله تبارك وتعالى كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

لم يَشُبْهُ[٢٢] تحريف، ولم يعتره تبديل، ولم تتنزل به الشياطين، ولقد قال ربنا: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

أما الآيات التي قد يُفهم من ظواهرها التعارض والاختلاف فسبيلنا فيها أن نقرَّ بأنها من عند الله ابتداءً سواء علينا فهمنا وجوه الجمع بينها أم لم نفهم، سالكين في ذلك سبيل الراسخين في العلم هاجرين سُبل الذين في قلوبهم زيغٌ نافرين عنها فارِّين منها.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧].

(٢٢) أي لم يختلط به ولم يعتره

فسبيلنا قولنا بألسنتنا وإقرارنا بقلوبنا ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

والحذرَ الحذرَ ممن يلقون الشبهات ويقذفون الشكوك.

فلقد حذر نبينا محمد ﷺ من ذلك.

لقد قال لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد تلا هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ إلى قوله ﴿أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. [آل عمران: ٧] قالت: قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِك الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»(٢٣).

وفي الباب أيضًا حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قومًا يتدارءون فقال: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ اللَّهِ لِيُصَدِّقَ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا به، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ»(٢٤).

وقد يتساءل متسائل فيقول: لماذا جاءت بعض الآيات متشابهة والأخرى محكمة؟ لِمَ لَمْ تأتِ كلها محكمة؟ فنقول: وبالله التوفيق، لله الأمر من قبل ومن بعد، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين

(٢٣) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٤٧).

(٢٤) **إسناده حسن**: وإن كانت به بعض العلل راجعها في تفسير التسهيل [آل عمران] وأخرجه عبد الرازق في المصنف (١١/ ٣١٦) وأحمد في المسند (٢/ ١٨٥).

فالآية تنزل فيزداد بها المؤمن إيمانًا ويزداد بها الكافر طغيانًا قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الأسراء: ٨٢] وقال سبحانه ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] فكما سلف كانت الآية تنزل فيصدق بها المؤمن فيزداد بذلك توفيقًا، وهداية وإيمانًا ويكذب بها الكافر والمنافق فيزداد كفرًا وطغيانًا.

فعلى سبيل المثال قوله تعالى في شأن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ [الصافات: ٦٤] إذا تليت على كافر أو ملحد، أو جاهل وغبي يقول قائلهم: كيف ذلك، والنار تأكل الخشب والأشجار؟

فيزداد تكذيبًا وعنادًا ومن ثَمَّ ضلالًا إلى ضلال.

أما المؤمن فجوابه مباشرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فالذي خلق النار، وأودع فيها من القدرة على الإحراق ما أودع هو الله عزَّ وجل، والذي خلق الأشجار هو الله عزَّ وجل، ومن ثَمَّ فلا يعجز ربنا عن سلب النار ما أودعه فيها من القدرة على الإحراق، فربي قادر على أن يجعل تلك النار المحرقة بردًا وسلامًا على أقوامٍ كما جعلها بردًا على إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وربي قادر على أن يجعل شجرة تخرج في أصل الجحيم، وأمره إذا أراد

شيئًا أن يقول له كن فيكون.

وقوله تعالى في شأن جهنم وخزنتها: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ٣٠] قد يتوقف عنده الكفار والمتشككون المرتابون، فيقول قائلهم ما الحكمة من ذكر هذا العدد ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾؟

ويتمادى بهم الغيُّ قائلين نحن قادرون على التغلب على هذا العدد ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ وعلى إخماد النار!!

هكذا يقولون جاهلين بقدرة الله عزَّ وجل، جاهلين بخلق الله، جاهلين قدر الملائكة وعظيم خلقهم، فضلًا عن جهلهم الحكمة من ذكر هذا العدد.

أما المؤمن فيقول: الله أعلم بملائكته وأعلم بالحكمة من وراء هذا العدد، آمنا بما ذكر ربُّنا في كتابه وصدقنا المرسلين فيما أخبروا به.

وكذا فالمؤمن يعلم أن المَلَك الواحد قادرٌ بإذن الله على تدمير الأرض ومن عليها إذا أمره الله بذلك.

المؤمن يزداد إيمانا لعلمه أن الله على كل شيء قدير:

يزداد إيمانًا فالعدد ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ مذكور في كتب أهل الكتاب، فإذا توافق ما ذُكر في كتاب الله ﷻ مع المذكور في كتب أهل الكتاب ازداد المؤمنون إيمانًا وتصديقًا لرسول الله ﷺ

فسبيلنا كما ذكرت أننا - كمسلمين كمؤمنين - نقرُّ بأن القرآن من عند الله وأن الله على كل شيءٍ قدير.

ولا مانع أبدًا من التماس أجوبةٍ تُدْفع بها الشكوك وتزال بها الرِّيب قدر جهدنا وقدر استطاعتنا ثم بعد ذلك فلنسأل أهل الذِّكر كما أمرنا ربنا سبحانه وتعالى ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وكما قال ربنا ﷻ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وإذا عجز شخص فلنسأل آخر عن الجواب إذ الله قال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

فلنقرأ لأهل العلم ولنطَّلع على أقوالهم في التفاسير المعتمدة المشهورة كالطبري وابن كثير والقرطبي وغيرها من كتب التفاسير.

بيد أنه ثَمَّ أمرٌ يجدر التنبيه عليه والإشارة إليه، ألا وهو أن **هناك من التفاسير تفاسير غير معتمدة** لا يعتمد عليها كثيرًا أهل السنة والجماعة، وكثير منها يحوي ترهات وخرافات، وتأويلات باطلة للآيات وكثير ما ينقل منها المشغبون وأهل الشبهات والشهوات ما يفيد أهواءهم كي يتسنى لهم الطعن في هذا الدين، فجدير بنا حينئذ التفطن لمثل هذا، وعدم الاعتماد إلا على التفاسير الموثقة والأقوال المعتمدة التي تقرها عمومات شريعتنا، ولا نخرج بها عن الإطار العام لأهل السنة والجماعة في التفسير.

كما أن هناك تفاسبر شيبت ومزجت بالإسرائيليات، وهي الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل، تلك الإسرائيليات، التي منها كذبُ صراح محض، وإسرائيليات قد توافق شريعتنا، وأخبار عن بني إسرائيل صحت بها

الأسانيد إلى رسول الله ﷺ فليعتمد ما صحت به الأسانيد، وليهجر ما وراء ذلك.

وهذه طائفةٌ من الآيات التي قد يخفى معناها على البعض وقد تشتبه على آخرين، وقد تخفى على قومٍ وجوه الجمع بينها وبين آيات أُخر.

أشكل على البعض قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥] فقالوا: كيف ذلك وهم إنما كذبوا نوحًا فقط؟

والجواب عن ذلك: أن دعوة الرسل لما كانت واحدة، كان من كذب رسولًا كمن كذَّب جميع الرسل.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

هذه الآية تدلُّ على أن قوم نوح كذَّبوا جماعة من المرسلين، بدليل صيغة الجمع في قوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ثم بيَّن ذلك بما يدلُّ على خلاف ذلك، وأنهم إنما كذَّبوا رسولًا واحدًا وهو نوح، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [الشعرا: ١٠٦ - ١١٧].

والجواب عن هذا: أن الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، لمَّا كانت دعوتهم واحدة وهي: لا إله إلا الله، صار مُكذِّبُ واحدٍ منهم مُكذبًا لجميعهم. كما يدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ

إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] الآية.

وقد بيَّن تعالى أن مُكذِّب بعضهم مُكذِّبٌ للجميع، بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ ... الآية [النساء: ١٥٠، ١٥١].

ويأتي مثل هذا الإشكال والجواب في قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشعراء: ١٢٣] إلى آخره، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الشعراء: ١٤١].

وكذلك في قصة لوط وشعيب، على الجميع وعلى نبينا الصلاة والسلام.

أُشكل على البعض تنوع الإجابات والأقوال في بعض المواطن

ففي آية، سُئل الكفار ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣] وفي آية أخرى ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ [طه: ١٠٣] وفي ثالثةٍ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في جوابه عن ذلك.

والجواب عن هذا بما دلّ عليه القرآن: وذلك أن بعضهم يقول: لبثنا

يومًا أو بعض يوم، وبعضهم يقول: لبثْنا ساعة، وبعضهم يقول: لبثْنا عشرًا.

ووجه دلالة القرآن على هذا؛ أنه بيَّن أن أقواهم إدراكًا وأرجحهم عقلًا وأمثلهم طريقة هو من يقول: إنهم ما لبثوا إلا يومًا واحدًا وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ١٠٣، ١٠٤] فالآية صريحة في اختلاف أقوالهم، وعلى ذلك فلا إشكال، والعلم عند الله تعالى.

وأُشكل على البعض قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] فأسند الله التوفي إلى نفسه فهو الذي يتوفى الأنفس. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. فأسند التوفي إلى ملك الموت.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] فأفاد أن الذين يتوفون رسلٌ وليسوا بواحدٍ، والجمع بين هذا كله ما ذكره الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال:

والجواب عن هذا ظاهر وهو أن إسناده التَّوفِّي إلى نفسه؛ لأن مَلَك الموت لا يقدر أن يقبض رُوح أحدٍ إلا بإذنه ومشيئته تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]. وأسنده لملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقَبْض الأرواح، وأسنده للملائكة؛ لأن مَلَك الموت له أعوان من الملائكة تحت رئاسته، يفعلون بأمره وينزعون الرُّوح إلى

الحلقوم، فيأخذها ملك الموت والعلم عند الله تعالى.

❑ وقوله تعالى في شأن طعام الكفار: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ [الغاشية: ٦] وقوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الحاقة: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان: ٤٣].

أُشكل على قوم، وحاصل الجواب أن أهل النار يأكلون طعامًا واحدًا زمانًا، وفي زمان آخر يأكلون طعامًا آخر.

ووجه آخر: أن بعض أهل النار طعامهم المستديم هو الزقوم، وآخرون طعامهم الضريع وغيرهم طعامهم الغسلين، والله أعلم.

وأُشكل على قوم قوله تعالى في شأن خلق الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] وكذا ما ورد من خلق الإنسان من صلصال كالفخار وكذا خلق الإنسان من طين، وكذا من طين لازب.

والجواب عن ذلك: أن هذه مراحل التراب وأطواره، فالتراب خُلط بماء فأصبح طينًا، ثم تُرك فأصبح طينًا لازبًا، ثم أصبح صلصالًا، ثم صلصالًا كالفخار. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٢٩].

أشكل على قوم إذ العاقر واحدٌ، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤] مفاده أن العاقرين جمعٌ. والجواب عن ذلك أنهم لما أقرُّوه على عقرها كانوا بمثابة من باشر الفعل، والله أعلم.

وفي بعض الأحيان يُسند الفعل إلى المجموع، ويكون الفاعل واحدًا منهم.

وأورد بعضهم إشكالًا عند قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤].

وللجواب عن ذلك: أقول - وبالله التوفيق:

ابتداءً فمن العلماء من توقف عن الخوض في التأويل والجمع، وقال: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما.

وممن نُقل عنه هذا القول: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

أخرج الطبري(٢٥) من طريق ابن أبي مليكة: أن رجلًا سأل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال: إنما سألتك لتخبرني، قال: هما يومان ذكرهما الله في القرآن، الله أعلم بهما، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم.

---

(٢٥) الطبري (٣٤٨٦٨) بسند صحيح.

ثم هذه أقوال أُخر للعلماء:

أحدها: أن هذا اليوم يختلف في طوله على الكافر عن المؤمن، فيُطوَّل هذا اليوم على الكافر ويخفف على المؤمن، وكلاهما يوم القيامة، فهو كألف سنة(٢٦)، وهو خمسون ألف سنة أيضًا.

ومما يؤيد أن هذا اليوم يطول ويشق على الكافر ما يلي:

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقد ورد في هذا الباب خبرٌ ضعيفٌ عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري أنه قال لرسول الله ﷺ: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا! فقال النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا**»(٢٧).

الثاني: أن اليوم المذكور في سورة [الحج]: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض، ويوم الألف في سورة [السجدة] هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه، ويوم الخمسين ألفًا هو يوم القيامة.

---

(٢٦) وقد ورد هذا الباب خيرٌ فيه: «**يدخل فقراء المهاجرين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم بخمسمائة عام**».

(٢٧) الطبري (٣٤٨٦٧) بسند ضعيف.

الثالث: أن عُمر الدنيا خمسون ألف سنة، لا يدري كم مضى وكم بقي؟ أما الألف سنة فهو يوم القيامة.

الرابع: أن المراد باليوم الذي هو كخمسين ألف سنة هو ما أشرنا إليه في السؤال السابق مسافة ما بين العرش إلى أسفل سافلين، فهذه المسافة تقطعها الملائكة في يوم، ولو قطعها أحدكم لقطعها في خمسين ألف سنة.

الوجه الخامس: أن ذلك، خمسين ألف سنة، قيل لمجرد التمثيل والتخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها.

وأورد البعض شبهة بشأن تعدد الزوجات حاصلها: أن الله عزّ وجل قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] فقالوا: نفى الله ﷻ استطاعة العدل وأمر بالاقتصاد على واحدة في حالة الخوف من عدم العدل فكأن في هذا إلغاء لتعدد الزوجات.

والجواب عن هذه الشبهة: أن العدل في الآية الأولى أعم وأوسع من العدل في الآية الثانية، فالعدل في الآية الثانية ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا...﴾ [النساء: ١٢٩]. المراد به محبة القلب والجماعُ على ما تقدم، أما في الآية الأولى فهو أعم من ذلك فيدخل فيه أصل القَسْم والمبيت والإنفاق وغير ذلك.

وقد يُشكل على البعض قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] وذلك في شأن بني اسرائيل مع قوله تعالى في شأن أمة محمد ﷺ:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وكذا حديث رسول الله ﷺ. «خيرُ النَّاسِ قَرنِي...»

والجواب عن ذلك: أن قوله تعالى في شأن بني إسرائيل: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] المراد به عالمو زمانهم وذلك لقوله ﷺ في شأن أمته: «إِنَّكُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». والله أعلم.

وأُشكل على البعض قوله تعالى: ﴿الْمَشْرِقُ﴾ في آية، و﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾ في أخرى، و﴿الْمَشَارِقِ﴾ في ثالثة.

وأجاب عن ذلك العلامة الشنقيطي بما حاصله: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] الآية.

أفرد في هذه الآية المشرق والمغرب، وثنّاهما في سورة الرحمن في قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن: ١٧]، وجمعهما في سورة سأل سائل في قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وجمع المشرق في سورة الصافات في قوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾﴾ [الصافات: ٥].

والجواب: أن قوله هنا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ المراد به جنس المشرق والمغرب، فهو صادق بكل مشرق من مشارق الشمس التي هي ثلاثمائة وستون، وكل مغرب من مغاربها التي هي كذلك، كما رُوي عن ابن عباس وغيره.

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية، ما نصّه: وإنما معنى ذلك: ولله المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم، فتأويله إذا كان ذلك معناه: ولله ما بين قطري المشرق وقطري المغرب، إذا كان شروق الشمس كل يوم من موضع منه، لا تعود لشروقها منه إلى الحلول الذي بعده، وكذلك غروبها. انتهى منه بلفظه.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾؛ يعني مشرق الشتاء ومشرق الصيف ومغربهما، كما عليه الجمهور. وقيل: مشرق الشمس والقمر ومغربهما.

وقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾: أي مشارق الشمس ومغاربها كما تقدَّم، وقيل: مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها، والعلم عند الله تعالى.

وأُشكل عليهم قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

والجواب عنه والله أعلم، أنه ثمَّ مواطن يكون فيها الكافر أعمى، وهي غالب المواطن يوم القيامة، ومواطن أُخر يبُصر ليرى ما يُسيئه وما يكره، وما يؤلم وثمَّ وجه آخر في قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي أريناك الأمور على حقيقتها، كل الحقائق التي كنت مكذبًا لها ومُنكرًا حدوثها.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن

طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] الآية.

هذه الآية الكريمة تدلُّ على أن الكفار يوم القيامة ينظرون بعيون خفيَّة ضعيفةِ النظر، وقد جاءت آية أُخْرَى يُتوهَّم منها خلاف ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

والجواب: هو ما ذكَره صاحب «الإتقان»، من أن المراد بحدَّة البَصَرَ العلم وقوّة المعرفة، قال قطرب: فبصرك؛ أي علمك ومعرفتك بها قوية، من قولهم: بَصُر بكذا، أي عَلِم، وليس المراد رؤية العين، قال الفارسي: ويدلُّ على ذلك قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾.

وقال بعض العلماء: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي تُدرك به ما عَمِيتَ عنه في دار الدنيا، ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا...﴾ [السجدة: ١٢] الآية، وقوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا...﴾ [الكهف: ٥٣] الآية، وقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم: ٣٨].

ودلالة القرآن على هذا الوجه الأخير ظاهرة، فلعلَّه هو الأرجح، وإن اقتصر صاحب «الإتقان» على الأول.

وقال الشنقيطي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا...﴾ [الإسراء: ٩٧] الآية.

هذه الآية الكريمة يدلُّ ظاهرها على أن الكفار يُبعثون يوم القيامة عُميًا وبُكمًا وصُمًّا.

وقد جاءت آيات أُخَر تدلُّ على خلاف ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، وكقوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾، وكقوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا...﴾ الآية.

والجواب عن هذا من أوجه:

الوجه الأول: هو ما استظهره أبو حيان، من كون المراد مما ذكر: حقيقته، ويكون ذلك في مبدأ الأمر، ثم يردُّ الله تعالى إليهم أبصارهم ونُطْقهم وسَمْعهم؛ فيرون النار، ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني: أنهم لا يرون شيئًا يسرُّهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحجَّة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه، وأخرج ذلك ابنُ جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وروي أيضًا عن الحسن، كما ذكره الألوسي في تفسيره؛ فنزّل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العَدَمِ، لعدم الانتفاع به، كما تقدَّم نظيره.

الوجه الثالث: أن الله إذا قال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. وقع بهم ذاك العمى الصَّمُّ والبكم، من شِدَّة الكرب واليأس من الفرج.

واستشكل قومٌ قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: ٢٣] مع قوله

تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧]:

فقالوا: إن ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ تفيد أنهم سيخرجون بعد تلك الأحقاب أو أن النار ستفنى بعد تلك الأحقاب، والجواب عن ذلك: أن الآية ليس فيها دليل على فناء النار وليس فيها أن الكفار يخرجون منها بعد دخولهم فيها، فالآية الكريمة فيها: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٢٣-٣٠].

فأفادت الآيات الكريمات أنهم - أي: الكفار - يلبثون فيها أحقابًا ليس لهم طعام ولا شراب إلا الحميم والغساق، ثم ماذا بعد هذه الأحقاب؟ ليس في الآية أنهم يخرجون أو أنها تفنى إنما في الآية الكريمة ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠].

هذا هو وجه توجيه هذا الرأي عندي(٢٨).

---

(٢٨) وإلى هذا المعنى أشار الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ في هذا النوع من العذاب هو أنهم ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥].
فإذا انقضت تلك الأحقاب صار لهم من العذاب أنواع غير ذلك، كما قال جل ثناؤه في كتابه: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٥-٥٨] وهذا القول عندي أشبه بمعنى الآية.

وقد قال فريق من أهل العلم كقتادة رحمه الله تعالى: إن هذه الأحقاب لا انقطاع لها ولا انقضاء لها.

* ومن أهل العلم من قال: إن هذه الآية في أهل القبلة (أي: المسلمين الذين قضي عليهم بنوع من العذاب) فإنهم يمكثون فيها إلى ما شاء الله ثم يخرجون.

وهذا الوجه ضعيف، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ [النبإ: ٢٨] ، والوجه الأول أولى الأوجه، والله تعالى أعلم.

هذا وقد تضافرت الأدلة على أن النار لا تفنى، وأهلها الذين هم أهلها لا يخرجون منها، ومن هذه الأدلة ما يلي:-

* قوله الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨].

* قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا...﴾ [السجدة: ٢٠].

*قول الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه: ٧٤].

* قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. [النساء:٥٦].

*قول النبي ﷺ: «يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ

خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ...»(٢٩) .

* قول الله ﷻ : ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧].

ومما ينبغي بيانه دفع الاشتباه الذي أورده البعض عند سماعهم قول الله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنعام: ٣٤]، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ٦٤].

فقالوا كيف يقال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ويُنقل أن التوراة والإنجيل قد حُرِّفت بعض نصوصها؛ إذ الله قال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾ [المائدة: ٤١].

وجواب ذلك واضح، ولله الحمد، وحاصل الجواب: أن قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ المراد بها الكلمات الكونية القدرية، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] فإذا قضى الله أمرًا وإذا أراد الله أمرًا فلابد أن يقع ما أراده الله عزَّ وجل فالأمور التي قدَّرها الله لابد أن تقع، وإرادة الله لابد أن تنفذ.

هذا، وقد تكفل الله عزَّ وجل بحفظ كتابه الذي أنزله على نبيه محمدﷺ ،

---

(٢٩) أخرجه مسلم (حديث ٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

وهو القرآن، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] فلم يعد - بفضل الله -، بإمكان أحدٍ أن يغيِّر من القرآن شيئًا، أو أن يحرِّف فيه، ولكن قد حُرِّفت التوراة والإنجيل كما أخبر الله سبحانه وتعالى. هذا، وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أُنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤنه لم يُشب؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدَّلوا ما كتب الله وغيَّروا بأيديهم الكتاب فقالوا: ﴿هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ﴾ [البقرة: ٧٩] أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؛ ولا والله ما رأينا منهم رجلًا قط يسألكم عن الذي أُنزل عليكم(٣٠).

وأوردوا إشكالًا عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣] مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨].

ووجه الجواب: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾

لمن تابوا منها في دنياهم، فالمشرك إذا تاب من شركه في حياته وأقلع عنه غفر له ذلك أيضًا، ولا إشكال.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ فمنزل على العبد الذي مات مشركًا ولم يتب من الشرك في حياته، والله أعلم.

(٣٠) البخاري (رقم ٢٦٨٥).

استشكل القوم ما ورد في قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]. وكذا قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤] مع قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩] فقالوا: آيات تنفي السؤال وآيات تثبته؟

وجواب ذلك: أن المواقف يوم القيامة تتعدد، فثمَّ مواطن فيها مُساءلات، ومواطن أُخر لا يُسأل عن ذنبه فيها إنس ولا جان.

كذا اشتبه على القوم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٢] مع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤] إلى غير ذلك من الآيات التي فيها ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وكذا الحديث القدسي الذي فيه: «**وَمَنْ أَظْلَم مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي...**»(٣١) فقالوا: من الأظلم؟ هل الأظلم هو الذي كذب على الله؟ أم الأظلم من منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه؟

أم الأظلم (من ذهب يخلق كخلق الله)؟، والجواب عن ذلك من أوجه:

أحدها: أن يتنزل هذا على الاختصاص بمعنى أن يقال: ليس هناك من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، وليس من المكذبين أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها، وليس من المفترين أظلم ممن

---

(٣١) أخرجه البخاري (حديث ٧٥٥٩)، ومسلم (حديث ٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى.

افترى على الله كذبًا ليضل الناس.. وليس من المصورين أظلم ممن ذهب يضاهي بخلق الله ويحاول بزعمه أن يخلق كخلقه.

الثاني: أنهم جميعًا في الظلم سواء.

الثالث: أن المراد تبشيع هذه الأفعال وتجريم فاعليها، والله تعالى أعلم.

وأُشكل على القوم قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] قالوا فكيف الجمع بين: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾.

وجواب ذلك أن قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي في الإيمان به والتصديق، فنؤمن بمحمد ﷺ وكذا نؤمن بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

دفع إشكال آخر أشكل على القوم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١، ١٦٢].

وقول موسى عليه السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فكيف - في حال التسوية بين المسلم والمؤمن - أن يكون رسول الله محمد ﷺ أول المسلمين، وموسى عليه السلام أول المؤمنين؟

وجواب ذلك: أن موسى عليه السلام أولهم في زمانه ونبينا محمدًا ﷺ أولهم في زمانه، وأليق من هذا الوجه أن يُقال: إن معنى قوله أول المسلمين يعني أول المبادرين إلى امتثال أمرك والاستسلام لك، وهذا القول يقوله الشخص للدلالة على امتثاله وسرعة مبادرته وطاعته.

وكذا القول في قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

وكذا قوله تعالى في شأن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٧].

والجواب: أن ذلك مُنزلٌ على القوم في زمانهم، فكل نبي من المذكورين اصطُفي في زمانه، والله أعلم.

وأشكل على قوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ [آل عمران: ٩٠] فقالوا: كيف ذلك، والله يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ

وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وقد أجاب عن نحو ذلك الإمام الشنقيطي بقوله:

هذه الآية الكريمة تدلُّ على أن المرتدِّين بعد إيمانهم، المزدادين كفرًا، لا يَقبل الله توبتهم إذا تابوا؛ لأنه عبَّر بـ «لن» الدالَّة على نفْي الفعل في المستقبل، مع أنه جاءت آيات أُخَر دالَّة على أن الله يقبل توبة كلِّ تائب؛ قبلَ حضور الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها؛ كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ فإنه يدلُّ بمفهومه على أن التوبةَ قبل إتيان بعض الآيات، مقبولةٌ من كلِّ تائب، وصرَّح تعالى بدخول المرتدِّين في قبول التوبة قبل هذه الآية مباشرةً، في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩]، فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ راجعٌ إلى المرتدِّين بعد الإيمان، المستحِقِّين للعذاب واللعنة إن لم يتوبوا، ويدلُّ له أيضًا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ...﴾ [البقرة: ٢١٧] الآية؛ لأن مفهومه أنه إن تابَ قبل الموت، قُبِلت توبتُه مطلقًا

والجواب من أربعة أوجه:

الأول: وهو اختيار ابن جرير ونَقَله عن رفيعٍ أبي العالية: أن المعنى؛ أن الذين كفروا من اليهود بمحمدﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفرًا بما أصابوا من الذنوب في كفرهم؛ لن تُقبل توبتهم من ذنوبهم التي أصابوها في كفرهم، حتى يتوبوا من كفرهم. ويدلُّ لهذا الوجهِ قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠]؛ لأنه يدلُّ على أن توبتَهم، مع بقائهم على ارتكاب الضلال، وعدمُ قبولها، حينئذ، ظاهرٌ.

الثاني: وهو أقربها عندي: أن قوله تعالى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾، يعني: إذا تابوا عند حضور الموت، ويدلُّ لهذا الوجه أمران:

الأول: أنه تعالى بيَّن في مواضع أُخر، أن الكافر الذي لا تُقبل توبته، هو الذي يُصِرُّ على الكفر حتى يحضُره الموت، فيتوب في ذلك الوقت؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]. فجَعَلَ التائبَ عند حضور الموت، والميتَ على كفره، سواءً، وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا...﴾ [غافر: ٨٥] الآية، وقوله في فرعون: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩]؛ فالإطلاق الذي في هذه الآية يُقيَّد بقَيْد تأخير التوبة إلى حضور الموت؛ لوجوب حَمْل المَطلق على المقيِّد، كما تقرَّر في الأصول.

والثاني: أنه تعالى أشار إلى ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾، فإنه يدلُّ على عدم توبتهم في وقت نفْعها، ونَقَل ابن جرير هذا الوجه الثاني، الذي هو التقييد بحضور الموت، عن الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسُّدِّي.

الثالث: أن معنى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾، أي إيمانهم الأول؛ لبطلانه بالرِّدَّة بعده، ونَقَل ابن جرير هذا القول عن ابن جريج، ولا يَخفى ضعْف هذا القول وبُعده عن ظاهر القرآن.

الرابع: أن المراد بقوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: أنهم لم يُوفَّقوا للتوبة النَّصوح حتى تُقبل منهم. ويدلُّ لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء: ١٣٧]، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ يدلُّ على أن عدم غفرانه لهم، لعَدَمِ توفيقهم للتوبة والهدى، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يونس: ٩٦] الآية.

ونظير الآية على هذا القول، قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] أي: لا شفاعة لهم أصلًا حتى تنفعهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ...﴾ [المؤمنون: ١١٧] الآية؛ لأن الإله الآخرَ لا يمكن وجوده أصلًا، حتى يقوم عليه برهان أو لا

يقوم عليه.

وأُشكل على قوم قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥] مع قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم: ٣٨] أي لا تحمل نفسٌ حمل نفسٍ أخرى.

وجواب ذلك: أنهم تسببوا في إضلال غيرهم فكان هذا وزرًا لهم اكتسبوه واقترفوه.

قال الشنقيطي رحمه الله في «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»:

هذه الآية الكريمة تدلُّ على أن هؤلاء الضالِّين يحملون أوزارهم كاملةً، ويحملون أيضًا من أوزار الأتباع الذين أضلُّوهم، وقد جاءت آيات أُخرُ تدلُّ على أنه لا يحمل أحد وِزْرَ غيره، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

والجواب: أن هؤلاء الضالين ما حملوا إلا أوزار أنفسهم؛ لأنهم تحمَّلوا وِزْرَ الضلال ووزر الإضلال، فمن سنَّ سُنَّةً سيئة، فعليه وِزرُها ووِزرُ مَنْ عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا؛ لأنَّ تشريعه لها لغيره ذنبٌ من ذنوبه، فأُخذَ به، وبهذا يزول الإشكال أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ...﴾ الآية.

وزعموا أن تعارضًا بين قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: ١] وقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ١ - ٣].

وجواب ذلك: أن قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ معناه أقسم، وكلمة ﴿لَآ﴾ لتقوية الكلام، كما تقول (لا والله) ومرادك والله، ومن ثَمَّ فلا تعارض في قول القائل لا، والله.

وقال بعض أهل العلم: هي زائدة كقوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:٢٩]. وكما قال: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝٩٥﴾ [الأنبياء:٩٥].

ومنهم من قال: إن كلمة ﴿لَآ﴾ ردٌّ لكلامٍ قد مضى من كلام المشركين الذين كانوا ينكرون الجنة والنار ثم ابتدأ القسم، فكأن المعنى: ليس الأمر كما تظنون من أنه لا بعث ولا ثواب ولا عقاب، أقسم على ذلك بيوم القيامة.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ قيل: إن ﴿لَآ﴾ صلة، وجاز وقوعها في أول السورة؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض، فهو في حكم كلام واحد؛ ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦﴾

[الحجر: ٦]. وجوابه في سورة أخرى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾ [القلم: ٢]. ومعنى الكلام: أقسم بيوم القيامة؛ قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة؛ ومثله قول الشاعر:

تذكرتُ ليلى فاعترتني صبابةٌ فكاد صميمُ القلب لا يتقطع

وحكى أبو الليث السمرقندي: أجمع المفسرون أن معنى ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾: أقسم، واختلفوا في تفسير: ﴿لَآ﴾ قال بعضهم: ﴿لَآ﴾ زيادة في الكلام للزينة، ويجري في كلام العرب زيادة ﴿لَآ﴾ كما قال في آية أخرى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن لَا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، يعني أن تسجد، وقال بعضهم: ﴿لَآ﴾ ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم. قلت: وهذا قول الفرّاء؛ قال الفرّاء: وكثير من النحويين يقولون: ﴿لَآ﴾ صلة، ولا يجوز أن يبدأ بجحد ثم يُجعل صلة؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالردّ عليهم [في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ] وذلك كقولهم: لا والله لا أفعل فـ«لا» ردٌّ لكلام قد مضى، وذلك كقولك: لا والله إن القيامة لحق، كأنك أكذبت قومًا أنكروه، وأنشد غير الفرّاء لامرئ القيس:

فلا وأبِيكِ ابنَةَ العامِرِيِّ لا يَدَّعِي القومُ أنّي أَفِرُّ

وقال غُوَيّة بن سلمي:

ألا نادت أمامةُ باحتمال لتحزنُني فلا بِكِ ما أبالي

ولأهمية هذه المسألة أُورد فيها قول العلامة الشنقيطي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾.

هذه الآية الكريمة يتبادر من ظاهرها، أنه تعالى أخبرَ بأنه لا يُقسم بهذا البلد، الذي هو مكَّة المُكرَّمة، مع أنه تعالى أقسمَ به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾.

والجواب من أربعة وجوه:

الأول: وعليه الجمهور: أن ﴿لَآ﴾ هنا صلة على عادة العرب؛ فإنها ربما لفظت بلفظة ﴿لَآ﴾ من غير قصد معناها الأصلي، بل لمجرد تقوية الكلام وتوكيده، كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ [طه: ٩٢] يعني: أن تتبعني، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، أي: أن تسجد، على أحد القولين.

ويدلُّ له قولُهُ في سورة ص: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ...﴾ [ص: ٧٥] الآية، وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلم أهلُ الكتاب، وقولُهُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] أي: فوربك، وقولُهُ: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ [فصلت: ٣٤] أي: والسيئة، وقولُهُ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝٩٥﴾ [الأنبياء: ٩٥] على أحَدِ القولين، وقوله: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] على أحد القولين، وقوله: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ﴾ [الأنعام: ١٥١] على أحد

الأقوال الماضية.

وكقول أبي النَّجْم:

فما أَلُومُ البِيضَ أَلَّا تَسْخَرَا   لَمَّا رَأَيْنَ الشَّمَطَ القَفَنْدَرَا

يعني: أن تسخر.

وكقول الشاعر:

ويَلْحِينَنِي في اللَّهْو أن لا أُحِبَّهُ   ولِلَّهْوِ داعٍ دائِبٌ غيرُ غافِلِ

وقولِ الآخر:

أبى جُودُه لا البُخْلَ واستعجلتْ به   نَعِمْ مِنْ فَتًى لا يمنعُ الجُودَ قاتِلُهْ

يعني: أبي جُوده البخل. و «لا» زائدة، على خلافٍ في زيادتها في هذا البيت الأخير، ولا سيما على رواية البُخل بالجرِّ، لأن «لا» عليها مضاف بمعنى لفظة «لا»، فليست زائدة على رواية الجرِّ.

وقولِ امرئ القيس:

فلا وأبِيكِ ابنَةَ العامِرِيِّ   لا يَدَّعِي القومُ أنِّي أَفِرُّ

يعني: وأبيك.

أنشد الفَرَّاء لزيادة «لا» في الكلام الذي فيه معنى الجَحْدِ قولَ الشاعر:

ما كان يَرْضَى رسولُ الله دِينَهُمُ   والأطْيَبَانِ أبو بكرٍ ولا عُمَرُ

يعني: وعمر. و «لا»صلة.

وأنشدَ الجوهريُّ لزيادتها قولَ العجاج:

في بئرِ لا حُورٍ سَرَى وما شَعَرْ ... بإفْكِهِ حتى رأى الصُّبحَ جَشَرْ

فالحور: الهلكة، يعني: في بئرِ هلكةٍ، و «لا» صلة، قاله أبو عبيدة وغيره.

وأنشد الأصمعي لزيادتها قولَ ساعدةَ الهُذَلِي:

أفَعَنْكَ لا بَرْقٌ كأنَّ وَمِيضَهُ ... غـاب تَسَنَّمه ضِرامٌ مُثْقَبُ

ويُروى: (أفمنك) و(تشيمه) بدل: (أفعنك) و (تسنمه).

يعني: أعنك برق، و «لا» صلة.

ومن شواهد زيادتها قولُ الشاعر:

تذكَّرتُ ليلى فاعترتْني صَبابَةٌ ... وكادَ صميمُ القلبِ لا يَتَقَطَّعُ

يعني: كاد يتقطَّع.

وأمَّا استدلالُ أبي عبيدة لزيادتها بقولِ الشَّمَّاخ:

أعائِشُ ما لقومِكِ لا أراهم ... يُضِيعُون الهِجانَ مع المُضِيعِ

فغلطٌ منه؛ لأن «لا» في بيت الشَّمَّاخ هذا نافيةٌ لا زائدةٌ، ومقصودُهُ: أنه تنهاه عن حفْظ ماله مع أن أهلها يحفظون مالهم، أي: لا أرى قومك يُضيعون مالهم، وأنت تُعاتبينني في حفْظ مالي.

وما ذَكرَه الفرَّاء من أن لفظة «لا» لا تكون صلةً إلَّا في الكلام الذي فيه

معنى الجَحْد، فهو أغْلَبِيٌّ لا يصحُّ على الإطلاق؛ بدليل بعض الأمثلة المتقدِّمة التي لا جحْد فيها، كهذه الآية على القول بأن «لا» فيها صلة، وكبيت ساعدةَ الهُذَلِي.

وما ذكَره الزمخشريُّ من زيادة «لا» في أول الكلام دون غيره، فلا دليلَ عليه.

الوجه الثاني: أن «لا» نفْي لكلام المشركين المكذِّبين للنبي ﷺ، وقوله: ﴿أُقْسِمُ﴾ إثباتٌ مُستأنَف.

وهذا القول وإن قال به كثير من العلماء، فليس بوجيهٍ عندي؛ لقوله تعالى في سورة القيامة: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ٢]؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ يدلُّ على أنه لم يُرِد الإثباتَ المُؤْتَنَفَ بعد النفي، بقوله: ﴿أُقْسِمُ﴾. والله تعالى أعلم.

الوجه الثالث: أنها حرفُ نفي أيضًا، ووجهه أن إنشاء القَسم يتضمَّن الإخبار عن تعظيم المُقْسَم به، فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية، والمراد أنه لا يُعظَّم بالقسم، بل هو في نَفْسِه عظيم، أُقسِمُ به أوَّلًا.

وهذا القول ذكَره صاحبُ الكشَّاف وصاحب رُوحِ المعاني، ولا يخلو عندي مِن بُعْدٍ.

الوجه الرابع: أن اللام لامُ الابتداء، أُشْبِعت فتحتها، والعرب ربما أشبعتِ الفتحةَ بألفٍ، والكسرةَ بياءٍ، والضَّمَّةَ بواوٍ.

فمثالُهُ في الفتحة قولُ عبد يغوث بن وقاص الحارثي:

وتَضْحَكُ مِنِّي شيخةٌ عَبْشَمِيةٌ كأن لم تَرَى قَبْلي أسيرًا يَمَانِيَا

فالأصل: كأن لم تَرَ ولكنَّ الفتحة أُشبعت.

وقولُ الراجِز:

إذا العجوزُ غَضِبتْ فطَلِّقِ ولا تَرَضَّاها ولا تَمَلَّقِ

فالأصل: تَرَضَّها؛ لأن الفعل مجزومٌ بـ(لا) الناهية.

وقولُ عنترة في مُعلَّقته:

يَنْباعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ زَيَّافَةٍ مِثْلَ الفَنِيقِ المُكْدَمِ

فالأصل: يَنْبَع، يعني أن العَرَق ينبَع من عَظْم الذِّفْرَى من ناقته، فأشبعَ الفتحةَ فَصار (ينباع) على الصحيح.

وقولُ الراجز:

قلتُ وقد خَرَّتْ على الكَلْكالِ يا ناقتي ما جُلْتِ من مجالي

فقوله: (الكلكال) يعني: الكَلْكَل، وليس إشباع الفتحة في هذه الشواهد من ضرورة الشعر؛ لتصريح علماء العربية بأن إشباع الحركة بحرفٍ يُناسبها، أسلوبٌ من أساليب اللغة العربية، ولأنه مسموعٌ في النثر، كقوله: كَلْكال، وخاتام، وداناق، يَعْنُون: كَلْكَلًا وخاتَمًا ودانقًا.

ومِثْله في إشباع الضمة بالواو قولُهم: بُرْقُوع ومُعْلُوق، يَعْنُون: بُرْقُعًا ومُعْلُقًا.

ومثال إشباع الكسرة بالياء قولُ قيس بن زهير:

ألم يَأتِيك والأنباءُ تَنْمِي ... بما لاقتْ لَبُونُ بني زِياد

فالأصل: يأتِك؛ لمكان الجازم.

أنشد له الفرَّاء:

لا عَهْدَ لي بِنِيضَالْ ... أصبحتُ كالشَّنِّ البالْ

ومنه قولُ امرئ القيس:

كأنِّي بفَتْخَاءِ الجَناحَيْن لَقْوَةٍ ... على عَجلٍ منِّي أُطأْطئُ شِيمالي

ويُروَى: صَيُود من العِقْبانِ طَأْطَأْنَ شِيمالي.

ويُروى: دَفُوف من العِقبان... إلخ.

ويروى: «شِمْلال» بدل «شيمال». وعليه فلا شاهد في البيت، إلا أن رواية الياء مشهورة.

ومِثالُ إشباعِ الضمة بالواو قولُ الشاعر:

هجوتَ زَبَّانَ ثم جِئتَ مُعْتذِرًا ... مِن هَجْوِ زبَّانَ لم تَهْجُو ولم تَدَعِ

وقولُ الآخر:

الله أعلمُ أنَّا في تلَفُّتِنا ... يومَ الفِراقِ إلى إخواننا صُورُ

وأنَّني حيثما يَثْني الهَوَى بَصَري ... مِنْ حيثما سلكوا أدْنُو فأنْظُورُ

يعني: فأنظُر.

وقولُ الراجز:

لو أن عَمْرًا هَمَّ أن يَرْقُودَا فانْهَضْ فشُدَّ المِئْزَرَ المَعْقُودَا

يعني: يرقد.

ويدلُّ لهذا الوجه قراءة قنبل: ﴿لَأُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: ١] بلام الابتداء: وهو مرويٌّ عن البزي والحسن، والعلم عند الله تعالى.

هذا، وقد أوردوا سؤالًا حاصله:

القرآن من عند الله، والتوراة من عند الله فلم حُفظ القرآن، وحُرفت التوراة؟

وأجاب عن هذا السؤال الشنقيطي رحمه الله تعالى فقال: هنالك في تفسيره «أضواء البيان»:

إن قيل: ما الفرق بين التوراة والقرآن؟ فإن كلًّا منهما كلام الله أنزله على رسول من رسله صلوات الله وسلامه عليهم، والتوراة حرفت؛ وبدلت كما بيناه آنفًا، والقرآن محفوظ من التحريف والتبديل؛ ولو حرف منه أحد حرفًا واحدًا فأبدله بغيره، أو زاد فيه حرفًا أو نقص فيه آخر لرد عليه آلاف الأطفال من صغار المسلمين فضلًا عن كبارهم.

فالجواب: أن الله استحفظهم التوراة؛ واستودعهم إياهم؛ فخانوا الأمانة ولم يحفظوها، بل ضيعوها عمدًا.

والقرآن العظيم لم يكل الله حفظه إلى أحد حتى يمكنه تضييعه، بل تولى

حفظه جل وعلا بنفسه الكريمة المقدسة، كما أوضحه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩] وقوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢] الآية، إلى غير ذلك من الآيات و«الباء» في قوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ [المائدة:٤٤] متعلقة بالرهبان والأحبار، لأنهم إنما صاروا في تلك المرتبة بسبب ما استحفظوا من كتاب الله.

أما ما يورده بعض الزائغين من اختلافات في بعض كلمات القرآن:

وزعمه أن هذا يخالف أصول اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] فجوابه التأسيسي: أن القرآن هو الحكم على اللغة وتصحيحها، وليست اللغة هي الحكم على القرآن هذا إجمالًا، أما تفصيلًا فهي لغةٌ لبعض العرب (أعني كلمة عليهُ بالرفع) وكذلك كلمة ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ...﴾ [المائدة: ٦٩] فجوابه التأسيسي كذلك، أما الجواب التفصيلي، فقد ذكر القرطبي عن الخليلي وسيبويه أن الرفع محمولٌ على التقديم والتأخير، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلا خوفٌ عليهم ولا يحزنون والصابئون والنصارى كذلك. وثَمَّ أوجه أخر، والله أعلم.

ولجهلهم بلغة العرب اضطربت عليهم الأُمور وتواردت عليهم الإشكالات:

فأقول وبالله التوفيق: إنهم أعني أهل العِنَاد والشقاق كثيرًا ما يحملون

الآيات والكلمات على غير وجهها عن قصدٍ أو عن غير قصدٍ، ومن ثَمَّ ينتقدون بناءً على هذه الأفهام الخاطئة، فمن ذلك فهمهم للنسيء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ فوصفوا النسيء بأنه شهرٌ، وقالوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] فقالوا: يُؤرخ جميع العلماء بالسنة الشمسية التي تفرق عن السنة القمرية شهرًا ﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾ فهل في هذا كفر؟ وكيف تعتبر الحساب الفلكي الطبيعي كفرًا؟

فأقول - وبالله التوفيق -: إن معنى ﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾ غير المعنى الذي ذهبوا إليه، فالنسيء معناه التأخير وإيضاح ذلك أن أهل الكفار كانوا في الجملة يحرمون القتال في الأشهر الحرم، فمنهم من كان يعتقد بحرمة القتال في هذه الأشهر ويحافظ على اعتقاده فلا ينتهك حُرمة هذه الأشهر ولا يقاتل فيها، ومنهم من كان لا يحترم اعتقاده، بل يخالف ذلك فكانت الحروب إذا اندلعت بينهم ودخل عليهم وهم في قتالهم في شهر حرام، ويفترض أنهم يتوقفون عن القتال، فيقول بعضهم: نؤخر هذا الشهر إلى الشهر القادم أو نلغي هذا الشهر هذا العام حتى يستمروا في قتالهم، فينتهكون الشهر الحرام ويتمادون في القتال فيه، فالنسيء هو التأخير فوصف الله هذا الصنيع الذي هو تأخير الشهر عن موعده واستباحة القتال في الأشهر الحرم بأنه زيادة في الكفر، ليس على ما فهمه أهل الغباء!

وخفي على قومٍ معنى الظن في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فقالوا: كيف يكونون متشككين في البعث ومع ذلك فهم من أهل الإيمان، بل من أهل الجنة؟ والجواب عن ذلك: أنهم أخطأوا في فهم معنى الظن في هذه الآية، فالظن له معانٍ، ومعناه هنا اليقين وكثيرًا ما يأتي الظن بمعنى اليقين، قال تعالى في شأن صاحب اليمين: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠] فالظن هنا بمعنى اليقين وكذا قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] أي أيقنوا أنهم مواقعوها.

وكذا خفي على قومٍ وجه الإفراد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١] فقالوا: الأولى أن يُقال ولا تكونوا أول كافرين به، والجواب عن ما ذكروه: أن المعنى: ولا تكونوا أول فريق كافر به، وهذا سائغٌ ومشهور في لغة العرب.

وأورد بعضهم قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩] ولم يقل رب ارجعني!

ووجه الجواب: أن المحتضر استغاث بربه ثم تحول خطابه إلى الملائكة قائلًا: ارجعون، هذا وجه، وأورد نحوه الشنقيطي في طائفة من أقوال أُخر فقال:

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾.

لا يخفى ما يسبق إلى الذهن فيه من رجوع الضمير إلى الرب، والضمير بصيغة الجمع، والربُّ جلَّ وعلا واحد.

والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول - وهو أظهرها -: أن الواو لتعظيم المخاطب، وهو الله تعالى، كما في قول الشاعر:

ألا فارحموني يا إلهَ محمدٍ ... فإن لم أكنْ أهلًا فأنت له أهلُ

وقول الآخر:

وإن شئتُ حرَّمتُ النساءَ سواكمُ ... وإن شئتُ لم أطعمْ نُقاخًا ولا بردًا

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿رَبِّ﴾ استغاثة به تعالى، وقوله: ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ خطاب للملائكة، ويُستأنس لهذا الوجه بما ذكره ابن جرير عن ابن جريج، قال: قال رسول الله ﷺ لعائشة: «**إذا عاين المؤمن الملائكة؛ قالوا: نُرجعك إلى دار الدنيا؟ فيقول: إلى دار الهموم والأحزان؟ فيقول: بل قدِّموني إلى الله. وأما الكافر فيقولون له: نُرجعك؟ فيقول: ربِّ ارجعون**».

الوجه الثالث: أنه جمع الضمير؛ ليدلَّ على التكرار، فكأنه قال: رب ارجعني، ارجعني، ارجعني، ولا يخلو هذا القول عندي من بُعْدٍ، والعلم عند الله تعالى.

ونحوه في التحول في الخطاب، قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصص: ٩].

فخاطبت امرأة فرعون فرعون بقولها ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، ثم التفت إلى الجند قائلة: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ وذلك أحد الأوجه في تفسير الآية الكريمة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ . . . الآية.

الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَكَ﴾ يدلُّ على أن المخاطَب واحد، وفي قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يدلُّ على أنه جماعة.

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: أن صيغة الجمع للتعظيم.

الثاني: أنها تعني فرعون وأعوانه الذين همُّوا معه بقتْل موسى، فأفردتِ الضمير في قولها: ﴿وَلَكَ﴾؛ لأن كونه قرَّة عين في زعمها يختصُّ بفرعون دونهم، وجمعتْه في قولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾؛ لأنهم شركاء معه في الهمِّ بقتْله.

الثالث: أنها لمَّا استعطفتْ فرعون على موسى، التفتتْ إلى المأمورِينَ بقتْل الصبيان قائلةً لهم: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، مُعلِّلةً ذلك بقولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٠].

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]. ينبغي- بزعمهم - أن يُقال كمثل الذين.

ولأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أنها بمعنى (الذين) في هذا الموطن، وحجة أصحاب هذا القول أن (الذي) تقع للواحد وللجمع، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣].

وأيضًا قول الشاعر:

إن الذي حانت بفلجٍ دماؤهم   هم القوم كل القوم يا أم خالد

فالمعنى إذن عند هذا الفريق من العلماء: مثلهم كمثل الذين استوقدوا نارًا.

*وقال آخرون: إن الذي هنا للمفرد ووحّد ﴿ٱلَّذِى﴾ و﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾؛ لأن المستوقد كان واحدًا من الجماعة تولى الإيقاد لهم فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعًا، فقال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩]، فمعناه وخضتم خوضًا كالخوض الذي خاضوه، ولا إشكال في ذلك والحمد لله.

ولقد استنكروا مجيء قصص بعض النبيين عليهم صلوات الله وسلامه عليهم في مواطن متفرقة من الكتاب العزيز، وفي بعض تلك المواطن باختصار وإيجاز وفي البعض الآخر بإطالةٍ وإسهاب.

استشكل البعض ذلك فما وجه الجواب؟

فأقول - وبالله التوفيق: نعم قد جاءت قصص بعض النبيين عليهم

صلوات الله وسلامه وأهل الصلاح في عدة سور وعدة مواطن بعضها بإسهاب وبعضها باختصار، بينما جاءت قصص أُخر في موطن واحد مجتمعة كقصة يوسف عليه السلام؛ فقد جاءت كاملة في سورة واحدة، وقصة الخضر مع موسى عليهما السلام وقصة ذي القرنين، وغيرها من القصص.

أما سبب مجيء بعض القصص في مواطن متفرقة، وأزمنة متباعدة كقصة موسى عليه السلام، فذلك لعلل منها:

تذكير نبينا محمد ﷺ في أوقات الأزمات بالذي حلَّ بالرسل من قبله، وذلك لتصبيره وتثبيته وتوجيهه، فكما هو معلوم أن سيرة نبي كريم، وهو نبي الله موسى ﷺ أشبهت سيرة رسول الله محمد ﷺ في كثير من مراحلها، فمن ثَمَّ يحتاج نبينا محمد ﷺ في مكة إلى تذكير بالذي حدث لموسى عليه السلام بمصر قبل أن يخرج منها، ورسولنا ﷺ قد ابتلي ببعض الظالمين من أقاربه كأبي لهب، وابتلي موسى عليه السلام برجل من قومه كقارون، وابتلي رسول الله ﷺ في المدينة بأهل نفاق حاولوا تخذيله يوم أحد وانصرفوا بثلث الجيش، وكذا موسى عليه السلام قال له قوم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، وهكذا.

وأنكر قومٌ النسخ فأشكلت عليهم أمورٌ.

أما نحن فأقررنا بالنسخ كما قال ربنا، قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: ١٠١].

وأقول موضحًا بعض الإيضاح:

إن النسخ كان في الأمم من قبلنا، إن إبراهيم عليه السلام رأى في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل عليه السلام، ثم إنه أسلم وتلَّه للجبين ولكن فُدي إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم، ولقد نَسخت التوراة بعض أحكام الشرائع التي قبلها، والإنجيل قد نُسخت فيه بعض أحكام التوراة، ولقد قال عيسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

ثم في دنيانا للتقريب للأفهام، وأعوذ بالله من الزلل والخطأ وأسأل ربي المغفرة، **أقول - وبالله التوفيق**: إن الله يعلم ما ينفع الناس في كل زمانٍ ومكانٍ فيقضي بما شاء ويحكم بما يُريد، إن الطبيب الحاذق في الدنيا قد يفتي مريضًا بأكل طعام معين في وقت معين ويمنعه من نفس الطعام في وقت آخر ويثق الناس في كلام الطبيب الحاذق، ونحن كمسلمين نصدق بكل قلوبنا وجوارحنا كلام ربنا عزَّ وجل فنقرُّ لله بالعلم ولا يسعنا إلا أن نقول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

أُشكل على القوم الآيات المُرغبة في العفو والتي تحث عليه والآيات الآمرة بالمؤاخذة والقتال.

فقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]

فهذه آيات في موطن المؤاخذة، وثَمَّ آيات تحث على العفو والصفح كقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ٨١]، إلى غير ذلك من الآيات.

والجواب عما ذُكر من الإشكال من وجهين:

أحدهما: أن الآيات الآمرة بالعفو منسوخة بالآيات الآمرة بالقتال.

الثاني: أن العفو له منازلُ ومواطنُ، والمؤاخذة لها منازل ومواطن.

فقد يرى الشخص أن الجاني في وقت ما يستحق العفو وفي أوقات أُخر يستحق المجازاة والعقاب، والله أعلم.

وأُشكل على قوم قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل ٦٧].

قالوا كيف يُمتن بالمسكر، وقد حُرِّم الخمر في آيات آخر كقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] ؟ وجواب ذلك: أن آية سورة النحل ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، منسوخة بالآية الأخرى، والله أعلم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعلوم عند العلماء أن الخمر نزلت في شأنها أربع آيات من كتاب الله:

الأولى: هذه الآية الدالَّة على إباحتها.

الثانية: الآية التي ذكر فيها بعض معائبها، وأنَّ فيها منافع، وصرَّحتْ بأن إثمها أكبر من نفعها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فشربها بعد نزولها قومٌ للمنافع المذكورة، وتركها آخرون للإثم الذي هو أكبر من المنافع.

الثالثة: الآية التي دلَّت على تحريمها في أوقات الصلاة دون غيرها، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] الآية.

الرابعة: الآية التي حرَّمتها تحريمًا باتًّا مطلقًا، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]، والعلم عند الله تعالى.

وأما على قول مَنْ زعم أن السَّكَرَ الطعمُ، كما اختاره ابن جرير وأبو عبيدة، أو أنه الخلُّ، فلا إشكال في الآية.

وأورد بعضهم إشكالًا فقالوا: كيف ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] و﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ [الفتح: ١٦] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣] ؟.

فأقول مجيبًا عن ذلك - وبالله التوفيق -: أن أهل العلم لهم قولان في توجيه قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾.

أحدهما: أنها محكمة، وأنها تتنزل على أهل الكتاب إذا دفعوا الجزية.

الثاني: أنها منسوخة بآية السيف.

والأول عندي أصح؛ لأن دعوى النسخ لا يصار إليها إلا عند عدم إمكان الجمع.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد ذهبت طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية، وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول ولم ينقد له أو يبذل الجزية قوتل حتى يقتل، وهذا معنى لا إكراه، قال الله تعالى: ﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ

ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾، [التوبة:١٢٣] وفي الصحيح «**عَجِبَ رَبُّك مِنْ قَوم يُقَادونَ إلى الجَنَّةِ في السّلاَسل**»، يعني: الأسارى الذي يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثائق والأغلال والقيود والأكبال ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونوا من أهل الجنة، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا يحيى عن حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «**أَسْلِمْ**»، قال: إني أجدني كارهًا، قال: «**وإن كُنتَ كَارِهًا**»(٣٢)، فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام بل دعاه إليه فأخبره أن نفسه ليست قابلة له بل هي كارهة، فقال له: «**أَسْلِم وإِنْ كُنْتَ كَارِهًا**»، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص.

وجوابنا عن أي شيء يُثار حول نبينا محمد ﷺ أننا نتدين بأنه رسولٌ من عند الله ﷻ، وما يفعله هو الصواب، وأنه لن يكذب أبدًا على الله ﷻ.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

لا ينطق عن الهوى - صلوات الله وسلامه عليه -.

لن يعصي ربه ﷻ، بل وقد قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ

(٣٢) رواه الأمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٨١).

يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥].

رسولٌ كريم حفظه الله وعصمه وشرح له صدره.

إن قال قائل: لماذا تزوج نبيكم ﷺ بتسع نسوة؟؟ بل أكثر من ذلك !!

قلنا وبالله التوفيق: إن الله أباح له ذلك، وأحل له ذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] الآية.

هكذا نجيب، وقد نلتمس جوابًا آخر ألا وهو: أنه ﷺ أوتي قوة ثلاثين في الجماع، كما قال أنس رضي الله عنه. فلقد قال: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلاثِينَ»[٣٣].

وليس النبي ﷺ فحسب، بل الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - أوتوا قوة في الأبدان وذكاء في العقول.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥﴾ [ص: ٤٥].

أي: الأقوياء العلماء.

فأولو الأيدي أي: الأقوياء أهل الفضل... وأولو الأبصار أي: العلماء.

(٣٣) أخرج ذلك البخاري (حديث ٢٦٨)، وفيه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ، قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسٍ: أَوَكَانَ يُطِيقُهُ؟... فذكره.

ولقد قال سليمان - عليه السلام -[٣٤]: «**لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلٌّ تَلِدُ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...**» الحديث.

فسبحان الله كيف يُجامع سبعين امرأة في ليلة؟!!

هذا وما صدر منه - صلوات الله وسلامه عليه - مما ذُكر في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: ١، ٢]، وفي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾ [الأنفال: ٦٧].

وفي قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٤٣﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ﴾ [التحريم: ١]... إلى غير ذلك.

فجوابنا عن ذلك كله:

أن ذلك صدر منه بقدر الله ﷻ لتعليم هذه الأمة في شخص نبيها محمد ﷺ، فهي أمور وإن كانت حدثت لشخص الرسول ﷺ.

فالمستفاد منها توجيه هذه الأمة المباركة - أمة الإجابة - إلى العمل

---

(٣٤) أخرج ذلك البخاري في «صحيحه» (حديث ٣٤٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ به.
وفي بعض الروايات تسعين، وفي بعضها مائة، وللجمع بينها. انظر «الفتح» (٦/ ٤٦٠).

الصالح النافع والتصرف الصحيح، إذا حدثت مثل هذه الأمور، ونزلت مثل هذه المُلمات!!.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح ٢].

يُراد بيانه أيضًا دفعًا لاشتباه قد يرد على ضعيف الإيمان بشأن نبينا محمد ﷺ ، حاصله هل أذنب النبيﷺ حتى يُقال له: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟

وجواب ذلك - وبالله التوفيق:

أن الشخص كلما ازداد ورعه وازدادت خشيته، كان كل شيء يفعله يحاسب نفسه عليه، ومن ثَمَّ قد يكون الشخص اجتهد وجانبه الصواب في موطن ما لاجتهاده(٣٥) فيستغفر اللهﷻ عن اجتهاده الذي جانبه الصواب فيه.

والأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- أشد الناس خشية لله، وأشدهم ورعًا وفقهًا وخوفًا من اللهﷻ ، ورهبة منه، وأشدهم قيامًا بأوامر اللهﷻ ، واجتنابًا لنواهيه.

هذا؛ ومما يدل على ما ذُكر من أن أهل الفضل والصلاح خاصة أنبياء الله - صلوات الله وسلامه عليهم - كانوا ينظرون إلى أعمالهم بمنظار أدق بكثير بكثير من ذلكم المنظار الذي ننظر به إلى أعمالنا.

---

(٣٥) وهذا يكون - بإذن الله - لتعليم هذه الأمة في شخص نبيهﷺ كما بيناه.

أن الخليل إبراهيم عليه السلام حين دُعي إلى الشفاعة يوم القيامة يقول: «نَفْسِي نَفْسِي[٣٦]، إِنِّي كَذِبْتُ ثلاثَ كَذِبَاتٍ».

ترون ما الكذبات - بارك الله فيكم - التي كذبها إبراهيم عليه السلام؟

الحديث بذلك: أخرج مسلم[٣٧] في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَام قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ. قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ، فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ، فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَّارِ أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَأُتِيَ بِهَا فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام إِلَى الصَّلَاةِ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَةِ الْأُولَى، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي فَلَكِ اللَّهَ أَنْ لَا أَضُرَّكِ، فَفَعَلَتْ، وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ، وَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا فَقَالَ لَهُ:

---

(٣٦) ستأتي الإشارة إليه قريبًا - إن شاء الله -.

(٣٧) مسلم (٢٣٧١)، واللفظ له، وانظر البخاري (٣٣٥٨).

إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي، وَأَعْطِهَا هَاجَرَ.

قَالَ: فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي، فَلَمَّا رَآهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام انْصَرَفَ فَقَالَ لَهَا: مَهْيَمْ؟ قَالَتْ: خَيْرًا، كَفَّ اللَّهُ يَدَ الْفَاجِرِ، وَأَخْدَمَ خَادِمًا». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ.

وكذلك اعتذار نبي الله نوح عليه السلام عن الشفاعة بقوله: «نَفْسِي نَفْسِي، قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي»[٣٨].

وكذلك فانظر إلى اعتذار نبي الله نوح عليه السلام المُكلل بالخشية والوقار والهيبة من الله ﷻ، لما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، فقال الله له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

عندها قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود ٤٧].

إنه أدب مع الله، إنها خشية من الله، إنها هيبة وإجلال!!.

فالأنبياء يعلمون من الله وعن الله ما لا نعلمه -عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين-.

(٣٨) انظر البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

أرجع فأقول - وبالله التوفيق والعلم عند الله ﷻ :

إن القرآن يُفسر بعضه بعضًا، وكذلك تفسره سنة النبي الأمين محمد ﷺ .

ومن ثَمَّ فلننظر في كتاب الله ﷻ، ولعلنا نجد شيئًا يُفسر به قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ . وما المراد بهذا الذنب؟

فأقول - وبالله التوفيق: لقد استأذن قوم النبي ﷺ في التخلف عن الجهاد وأبدوا لرسول الله ﷺ عللاً، فأذن لهم رسول الله ﷺ عن اجتهاد منه في التخلف عن الجهاد، فنزل قول الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣].

فتأمل قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، وانظر ما الذي حدث حتى قيل لهذا الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾.

إن الذي صدر هو الإذن لقوم استأذنوه، فيُعاقب بجميل العتاب: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾.

فالذي يُقدر الأمور هو الله، والذي يرى أن ذلك ذنب يستلزم العفو هو الله ﷻ .

فالذنب في قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ ليس كالذنوب والآثام والأوزار التي تصدر منا، فقد سلَّم الله أنبياءه من ذلك وحفظهم، إنما هي اجتهادات كما قد رأيت.

ونحوه قبول الفدية من أُسارى بدر، فقد كان عن اجتهاد من رسول الله ﷺ

وبعد مشاورات مع أصحابه ﵃ هل نقبلها منهم أم لا؟ ثم إن منهم من أشار بقبولها، فجنح رسول الله ﷺ إلى رأي من أشار بقبولها، فنزل ما نزل من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧].

وأما عن الحديث بذلك:

فقد أخرجه مسلم(٣٩) في «صحيحه» من حديث ابن عباس ﵄ وفيه: قال ابن عباس: «فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «**مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟**» قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ -نَسِيبًا لِعُمَرَ- فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

---

(٣٩) مسلم (حديث ١٧٦٣).

«أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ» - شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ -، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾، فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ».

ونحو ذلك فعله - صلوات الله وسلامه عليه - من الصلاة على المنافقين والاستغفار لهم.

فقد فهم من قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أنه تخيرٌ له، فاختار أن يستغفر لهم، وقال عند قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٨٠]: «لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ لَغُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ».

والحديث بذلك أخرجه البخاري ومسلم[٤٠] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (واللفظ لمسلم) وفيه: «لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، ابْنُ سَلُولَ، جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ أَنْ يُكَفِّنَ فِيهِ أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُصَلِّي عَلَيْهِ، وَقَدْ نَهَاكَ اللَّهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ!! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ فَقَالَ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾، وَسَأَزِيدُ عَلَى

---

(٤٠) البخاري (٤٦٧٠)، ومسلم (٢٤٠٠)، وعند البخاري (٤٦٧١): «لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ».

سَبْعِينَ». قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾».

وكذا فعله ﷺ مع ابن أم مكتوم الأعمى، فقد كان وقت مجيء ابن أم مكتوم يحدث قومًا من المشركين يرغب في هدايتهم، ويرجو من وراء هدايتهم هداية أقوامهم وأصحابهم، فأعرض عن ابن أم مكتوم طمعًا في هداية الآخرين، فعوتب بالذي عُوتب به - صلوات الله وسلامه عليه.

والحديث بذلك أخرجه الترمذي(٤١) وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أُنْزِلَ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى، أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرْشِدْنِي، وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ وَيَقُولُ: «أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا؟». فَيَقُولُ: لَا. فَفِي هَذَا أُنْزِلَ.

وفي رواية عند أبي يعلى من حديث أنس رضي الله عنه: جاء ابن أم مكتوم الأعمى إلى النبي ﷺ وهو يكلم أُبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ قال: فكان النبي ﷺ يكرمه.

فكلها كما هو واضح اجتهادات عوتب فيه - صلوات الله وسلامه عليه - واستفادت أمته من ذلك العتاب.

---

(٤١) الترمذي (٣٣٣١)، وقد نقل غير واحد من العلماء الإجماع على أن الآيات نزلت في ابن أم مكتوم.
والحديث وإن كانت به علة، لكن يُصحح لشواهده.

وكذا قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فالظاهر لي - والله أعلم - أن رسول الله ﷺ قد أعلمه ربه ﷻ بأنه سيتزوج زينب بنت جحش، فخشي أن يتحدث الناس بذلك؛ لأن هذا كان أمرًا مرفوضًا عند الناس آنذاك - أعني عند الناس في جاهليتهم - كان مرفوضًا عندهم أن يتزوج الرجل زوجة من تبناه.

وكان النبي ﷺ تبنى - قبل البعثة - زيد بن حارثة، فكان يُقال زيد بن محمد، فلما نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] دُعي بزيد ابن حارثة، وكان زيدٌ متزوجًا بزينب بنت جحش رضي الله عنها، فلما كان بينهما ما كان - أعني بين زيد وزينب رضي الله عنهما - وجاء زيدٌ يشكو زينب إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

قال بعض العلماء: وكان قد أعلمه ربُّه بأنه سيتزوج زينب، ولكنه ما أظهر ذلك؛ لأن الناس يستنكرون أن يتزوج الرجل زوجة من تبناه، فأخفى النبي ﷺ في نفسه ما أعلمه الله به، وخشي النبي أن يؤثر إظهار ذلك على دعوته إلى الله، وأن ينتكس قوم بسبب ذلك.

فأخفى - عن اجتهاد منه - ما أعلمه الله إياه، فعُوتب في ذلك، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

هذا ما يتعلق بقوله تعالى. ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾.

وليس معنى قولي الذي ذكرت من أن نبينا ﷺ غُفرت له تلك الاجتهادات، أن غيرها لم يُغفر له إن كان قد حدث، بل كل ذنبٍ له قد غُفر، ما تقدم منه وما تأخر.

علمناها أم لم نعلمها، فضلًا من الله ﷻ ورحمة!!.

وقد يقول قائل: إن هناك أمورًا تلازم البشر لا ينفكون عنها، فهذه أيضًا مغفورة لرسول الله ﷺ.

فدائمًا نتهم عقولنا وأفهامنا ولا نتهم رسولنا الأمين ﷺ!!.

نُخطئ أنفسنا ولا نخطئ نبينا - عليه أفضل صلاة وأتم تسليم.

نتهم عقولنا بالغباء إذا لم نفهم المراد، وساحة نبينا محمدﷺ بريئة نبرؤها ما دامت السموات والأرض.

نقول عن نبينا ﷺ إنه رسول الله ولن يعصي ربه ﷻ.

أسوق لكم - أيها الأخوة - مسألة صلح الحديبية وما كان فيها من أمور في ظواهرها الإجحاف بأهل الإسلام، فلما بدأ النبيﷺ الصلح مع ممثل الكفار آنذاك وهو سُهيل بن عمرو، بدأ النبي ﷺ في المصالحات وكتابة الشروط الخاصة بالصلح.

فقال النبي ﷺ بعد أن اتفق مع سهيل على شروط: «**يا علي! اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**» وهذا قبل كتابة بنود الاتفاق.

فقال سهيل بن عمرو: لا تكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، لا ندري ما الرحمن؟ ولا ندري ما الرحيم؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال الرسول ﷺ لعلي: «**يا علي، أُمح بسم الله الرحمن الرحيم واكتب: باسمك اللهم**». قال علي: والله لا أمحوها أبدًا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «**أشر لي إليها**»، فأشار علي للنبي ﷺ فمحاها النبي ﷺ، وكتب علي مكانها: باسمك اللهم. قال لعلي: «**اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو**».

قال سهيل: لا تكتب: رسول الله - لا يُقر سهيل بذلك - ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، لو نعلم أنك رسول من عند الله ما حاربناك. فقال النبي ﷺ لعلي: «**يا علي امح رسول الله، واكتب محمد بن عبد الله**». قال: والله يا رسول الله ما أمحو رسول الله، فمحاها النبي ﷺ وكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، وعمر واقف يرقب هذه الأمور التي يراها من وجهة نظره مجحفة بحقهم، ويقول في نفسه: ما هذا؟ ولكن رسولنا ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولا يتصرف إلا بوحي.

وفي بنود الاتفاق سمع سهيل بن عمرو يقول: لا يأتيك رجل منا مسلم إلا وتلتزم أن ترده إلينا، أما إذا كان رجل منكم قد كفر فلن نرده إليك، فكان هذا البند غريبًا: من يأتينا منهم مسلمًا نرده إليهم، والذي يكفر منا ويأتيهم لا يردوه إلينا، وقال سهيل: هو هذا، ولا نقبل إلا هذا. قال الرسول ﷺ: «**اكتب هذا يا علي: من أتانا مسلمًا رددناه إليهم**» يعني: الله

وكيله ويتولاه، ومن يرتد منا فالله غني عنه، كذا في شروح الحديث، وجاء في هذا الوقت أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذي يخاصم أبوه النبي ﷺ، جاء أبو جندل مسلمًا فألقى بنفسه أمام رسول الله ﷺ والمسلمين.

فقال: انظروا ما حل بي يا أهل الإسلام، وكشف عن بعض جسمه، وإذا بجسمه آثار كثيرة من شدة الضرب، فقال سهيل للنبي: يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه، فَرُدَّ إليَّ ولدي، فقال: **«أَجْزه لي»** يعني - اتركه لي إننا لم نقض الاتفاقية بعد -.

قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: **«بل اجزه لي»**. قال: ما أنا بمجيزه لك. فرده النبي ﷺ، وعمر رضي الله عنه يرى هذا المنظر ويتألم جدًّا لما يحدث.

ثم يقول في الاتفاقية: ارجع هذا العام لا تعتمر، والنبي ﷺ محرم وأصحابه محرمون يريدون الاعتمار، وهو يقول: ارجع لن تعتمر هذا العام لا أنت ولا أصحابك، لكي لا تتحدث العرب أنَّا أُخِذنا ضغطة، كذا يقول سهيل بن عمرو، فيقول النبي ﷺ: **«نرجع هذا العام»**، وعمر يقول للنبي ﷺ: يا رسول الله، ألسنا على الحق؟! قال: **«بلى»**، وعدونا على الباطل؟! قال: **«بلى»** قال عمر: فَلِمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في ديننا؟ والرسول ﷺ يقول: **«إني رسول الله، ولن أعصي ربي** عز وجل **»**.

فقال عمر: ألم تكن تخبرنا أنا سنعتمر ونأتي البيت؟ قال: **«نعم أخبرتك، ولكن هل أخبرتك أنك ستعتمر هذا العام؟»** قال: لا. فقال النبي ﷺ: **«ولكنك ستعتمر»**.

فرجع عمر إلى أبي بكر، وأبو بكر يُعيد عليه نفس المقالة، فأجاب أبو بكر: يا ابن الخطاب الزم نبيك محمدًا؛ فإنه رسول الله ولن يعصي ربه ﷺ. قال: يا أبا بكر ألم يكن يخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: فصدق نبيك، إنك ستأتي البيت وستطوف به، لكن هل أخبرك أنك ستأتي هذا العام؟ فقال: لا. فسكت عمر على غيظه.

ورجع النبي ﷺ وأصحابه، فما كان بعد ذلك؟

كان - بفضل الله - فتحًا مبينًا، فقد دخل آلاف في دين الله أفواجًا في هذه الهدنة، ويشاء الله أن يسلم سهيل بن عمرو، وأن يحسن إسلامه جدًّا. وهو الذي كان يقول: امح بسم الله الرحمن الرحيم، فالله يعلم ونحن لا نعلم.

الشاهد: أن الصديق رضي الله عنه كانت إجابته موجزة: إن محمدًا رسول الله، ولن يعصي ربه، ولن يفعل شيئًا يخالف به الله.

أما حديث الحديبية بلفظه فقد أخرجه البخاري.

وأسوق منه القدر الذي يعنينا في هذا الموطن: ففيه:

«فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ؟ وَلَكِنِ اكْتُبْ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ.

فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»**، ثُمَّ قَالَ: **«هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»**. فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»**.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **«عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ»**. فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا.

قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ، أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ»**. قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«فَأَجِزْهُ لِي»**. قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ. قَالَ: **«بَلَى فَافْعَلْ»**. قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. قَالَ مِكْرَزٌ: **«بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ»**. قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا

قَدْ لَقِيتُ؟ - وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ -.

قَالَ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: «**بَلَى**». قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ ؟ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ: «**بَلَى**». قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**».

قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «**بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ**». قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: «**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ**».

قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ.

قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ: بَلَى أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا. قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا**»، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ، ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً

حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا...» انتهى المراد منه.

أما الأحاديث المروية عن رسولنا محمد ﷺ فما دامت قد ثبتت بها الأسانيد وصحت نسبتها إلى رسول الله ﷺ فشأنها التصديق شأن الكتاب العزيز، فما ينطق نبينا ﷺ عن الهوى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

فنصدق بكل ما قاله رسول الله ﷺ، عجزت عقولنا عن إدراك معناه أم أدركت، فهو رسول الله ﷺ ولن يكذب على الله ﷻ.

نتهم عقولنا ولا نتهم رسولنا ﷺ، ولا نتهم كتاب ربنا!!.

نصف عقولنا بالغباء والجهل إذا لم نفهم مراد رسولنا ﷺ، وإذا لم نفهم مراد الله ﷻ!!.

ثم لا مانع أبدًا من سؤال أهل الذكر وأهل الفقه وأهل العلم.

قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وهذا أمرٌ مهم أيضًا، حاصله:

وجوب التثبت من أصل المعلومة التي يبني عليها المتشكك رأيه، ومن ألقيت عليه الشبه.

وذلك لأن كثيرًا من المفترين الكذابين يبنون الشبهات والشكوك على أمورٍ لا تصح أساسًا، فكما أسلفنا قد يختارون وجهًا منبوذًا شاذًّا من وجوه التفسير فيبنون عليه رأيهم، وكذا قد يعمدون إلى مرويات ضعيفة لا تصح بها الأسانيد أو مكذوبة على رسول الله ﷺ يبنون عليها آراءهم.

وكمثال لذلك: قولهم: إن رسول الله ﷺ لما نزل عليه الوحي أراد أن ينتحر، وأن يلقي بنفسه من فوق جبل، ويعتمدون في ذلك على رواية مرسلة منقطعة، والمرسل عند أهل الحديث من قسم الضعيف كما هو معلوم.

هذا؛ ويُلفت النظر أيضًا في هذا المقام إلى أمرٍ:

ألا وهو أن الكذابين والوضاعين لم يتركوا سنة رسول الله ﷺ تمضي في الناس كما قالها الرسول ﷺ، بل كذبوا على رسول الله ﷺ، وافتروا، واختلقوا، فاختلطت بصحيح السنة أكاذيب وخرافات، ولكن - ولله الحمد - قيَّض الله لهذه الأمة علماء حديث وأثر يذبون عن سنة النبي ﷺ وينافحون عنها ويُبَيِّنون صحيحها من السقيم المفترى والمكذوب المختلق المصنوع.

فحينئذٍ قد يأتينا شخص زائغ - والعياذ بالله - فينصب خلافًا بين حديثين أحدهما صحيح، والآخر مكذوب مختلف، فيُنشئ بذلك تعارضًا بين السنة بزعمه لتوهين الاحتجاج بها وللتلبيس على المسلمين.

فالجواب عن ذلك: أن المكذوب مُطَّرحٌ أصلًا فلا يُنشئ بسببه خلاف،

ومن ثَمَّ فأمرنا سالم لنا إن شاء الله.

صحيح أنه قد تتعدد الأقوال في مسألة من المسائل لاختلاف الأفهام في الاستنباط مثلًا، ولكن مثل هذا لا تأثير له مطلقًا على شريعتنا الغراء - ولله الحمد -!!.

ومن ذلك: انتقادهم ما قد نُسب إلى رسول الله ﷺ من أن معنى ﴿قٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق: ١] هو جبل يُسمى جبل قاف، وهو أعلى قمة في الأرض، بل جبل يحيط بالأرض.

فأقول - وبالله التوفيق: إن هذا الخبر المنسوب إلى رسول الله ﷺ خبرٌ مكذوب لا شك في كذبه ووضعه، فلا يصح أن يفتري مفترٍ حديثًا ثم ينسبه إلى شخص، ثم يتعدى على هذا الشخص بسبب هذا الحديث، فهذا أمر غريب وشأن عجيب.

وأحيانًا يعجز شخص عن فهم المراد من الأحاديث أو الآيات، فينشئ بينها تضاربًا، ويتهمها بالتناقض والتضارب - والعياذ بالله -، وإنما آفة ذلك الجهل الذي أَلَمَّ به.

فجهل الشخص بشيء قد يحمله على معاداته في كثير من الأحيان.

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

وقال الخضر لموسى - عليهما السلام -: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ

بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ [الكهف: ٦٨].

وقال علي رضي الله عنه: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»(٤٢).

وأخرج البخاري في «صحيحه» من حديث أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: وَرَأَى سِكَّةً وَشَيْئًا مِنْ آلَةِ الْحَرْثِ فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الذُّلَّ**»(٤٣).

وقد فهمه قومٌ على غير وجهها فقالوا: إن الدين يدعو إلى التخلف، وهذا من غبائهم وجهلهم بديننا.

وذلك أن معنى الحديث - والعلم عند الله تبارك وتعالى -: أن المسلم إذا اشتغل بالحرث وآلاته والزراعة وأدواتها، وترك أعمال القتال وأدواته من طائرات ودبابات وصواريخ ومدمرات وسائر أدوات القتال؛ تسلط عليه عدوه وأنزل به الذل والصغار، أما إذا اشتغل المسلم بأدوات القتل والقتال (ولم يضيع آلات الحرث)، فإن عدوه سيهابه كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وثَمَّ أوجه أُخر لتوجيه الحديث، والله أعلم.

ثم إن ديننا يدعو إلى تعمير الأرض لا إلى تخريبها، فقد قال النبي ﷺ: «مَا

---

(٤٢) البخاري (رقم ١٢٧).

(٤٣) البخاري (٢٣٢١).

مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ؛ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»(٤٤).

وقال النبي ﷺ: «مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ، فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»(٤٥).

وقال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا أَوْ لِيَمْنَحْهَا»(٤٦).

وقال النبي ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ»(٤٧).

هذا؛ وقد تولى ربنا سبحانه الدفاع عن نبيه محمد ﷺ، وأظهر براءة ساحته ودافع عنه خير دفاع.

نفى الله عنه الجنون فقال:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ٢].

ونفى الله عنه الكهانة فقال:

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

ونفى الله عنه الوصف بأنه شاعر:

إذ قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩].

---

(٤٤) أخرجه البخاري (٢٣٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٤٥) أخرجه البخاري (٢٣٣٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤٦) أخرجه البخاري (٢٣٣٩).
(٤٧) أخرجه أحمد بإسناد صحيح (٣/ ١٩١)، (٦/ ١٨٣- ١٨٤).

لقد نفى الله عنه الكذب والافتراء:

فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣- ٧٥].

ولقد نفى الله عنه التهم:

فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٤].

قيل: المعنى ليس هذا النبي ﷺ بمتهمٍ فيما يُخبر به عن الله ﷻ.

وقيل: وما هو ببخيل: أي لا يضن بالإخبار عن الله ﷻ بكل ما يقرب منه سبحانه ومن جنته، وأخبر بكل ما نتجنب به النار إلى غير ذلك مما كُلِّف به ﷺ

ولما زعم زاعمٌ أن النبي ﷺ قد تعلَّم هذا القرآن من غلام نصراني، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]

أي: كيف يا أهل الكفر تزعمون أن الذي علَّم الرسول ﷺ هو الغلام النصراني، الغلام النصراني هذا أعجمي لا يتكلم العربية، وإن تكلَّم بها لا

يجيدها؟!!!

أخرج الطبري(٤٨) بإسناد ضعيف، لكن له شواهد يصحح بها من طريق عبد الله بن مسلم الحضرمي: أنه كان لهم عبدان من أهل غير اليمن، وكانا طفلين، وكانا يقال لأحدهما يسار، والآخر جبر، فكان يقرآن التوراة، وكان رسول الله ﷺ ربما جلس إليهما، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما يتعلم منهما، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٧] فقد قال فيه العلامة الشنقيطي ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

هذه الآية الكريمة يُوهم ظاهرها أن النبي ﷺ كان ضالًّا قبل الوحي، مع أن قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ يدل على أنه ﷺ فُطِر على هذا الدين الحنيف.

ومعلوم أنه لم يُهَوِّده أبواه ولم يُنَصِّراه ولم يُمَجِّساه، بل لم يزل باقيًا على الفطرة حتى بعثه الله رسولًا، ويدل لذلك ما ثبت من أن أول نزول الوحي كان وهو يتعبَّد في غار حراء، فذلك التعبُّد قبل نزول الوحي دليل على البقاء على الفطرة.

(٤٨) الطبري (١٤/ ١٧٨)، وله شاهد عند الحاكم (٢/ ٣٥٧) فانظره إن شئت.

والجواب: أن معنى قوله: ﴿ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، أي: غافلًا عما تعلمه الآن من الشرائع وأسرار علوم الدين التي لا تُعلم بالفطرة ولا بالعقل، وإنما تُعلم بالوحي، فهداك إلى ذلك بما أوحى إليك.

فمعنى الضلال - على هذا القول - الذهاب عن العلم.

ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وقوله: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: ٩٥].

وقول الشاعر:

وتظُنُّ سلمى أنني أبغي بها بدلًا أراها في الضلال تهيم

ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأن المراد بالإيمان شرائع دين الإسلام. وقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقيل: المراد بقوله: ﴿ضَآلًّا﴾، ذهابُه وهو صغير في شعاب مكة.

وقيل: ذهابه في سفره إلى الشام.

والقول الأول هو الصحيح، والله تعالى أعلم، ونسبة العلم إلى الله أسلم.

ولما حاول بعضهم أن ينال من رسول الله ﷺ لكونه كان أُميًّا؛ بيَّن الله سبحانه وتعالى الحكمة من كونه ﷺ كان أُميًّا، إذ قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فهذا من الإعجاز، فرسولٌ أمي لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك يبين عن الله خير بيان ويُخبر بما أوحاه الله إليه خير إخبار وأصدق إخبار.

هذا؛ ومع أن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب بإقرار أهل الكفر أنفسهم إلا أنهم أيضًا واصلوا اتهامهم له، ودافع ربنا سبحانه، فالله يدافع عن الذين آمنوا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٥].

فحقًّا لقد انطبق على أهل الكفر ما أدركه الناس من كلام النبوة الأولى: **«إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»**(٤٩).

فيقرون للنبي ﷺ، ومع ذلك يتهمونه بأنه يقرأ كتب الأولين ويكتبها!!.

وهذه بعض الأحاديث التي قد يبدو من ظاهرها التعارض وصور للجمع بينها، لعلَّ طالبًا للقناعة أن يقنع ويقتنع، ومريدًا لإزالة الشبهة عن نفسه أن تُزال عنه.

---

(٤٩) أخرجه البخاري (٦١٢٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»**.

ومستزيدًا من العلم الشرعي أن يستزيد!!.

كمثال لهذا الذي قد يظنه البعض متعارضًا

قوله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ»(٥٠).

ونحوه: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(٥١).

وقوله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»(٥٢). يعني قاطع رحم.

فقد يعجز البعض عن فهم وجوه الجمع فيظن أن الأحاديث بينها تعارض، ولكن لو ردها إلى أهل العلم لوجد للجمع وجوهًا ذكرها العلماء، ومن ثَمَّ فلا تعارض، ومن وجوه الجمع هذه ما يلي:

الأول: أن قوله: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» مقيد بمشيئة الله ﷻ، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

الثاني: أن قوله: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» أي: لا يدخل مع الداخلين الأولين إذا لم يغفر الله له، فإذا لم يغفر الله له عُذِّب بقدر ما قطع من الرحم ثم دخل بعد ذلك الجنة.

الثالث: أنه لا يدخل أنواعًا من الجنان ودرجات من الجنان أُعدت لمن وصلوا الأرحام، والله أعلم.

---

(٥٠) مسلم (١/ ٢٢٨).

(٥١) مسلم (١/ ٢٢١).

(٥٢) البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

وقول النبي ﷺ في شأن القرن الثالث أو الرابع وما بعدهما: «**ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ**»(٥٣).

فقالوا: هذا في موطن الذم، ذم من شهد دون أن تُطلب منه الشهادة.

ولكن هناك حديث آخر فيه أن النبي ﷺ قال: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا**»(٥٤).

والجمع بين الحديثين: أن الحقوق إذا كانت ستضيع، فحينئذ يُستحب للشخص أن يقوم ويشهد بالذي رآه حفاظًا على الحق ألا يضيع.

أما الآخر: «**يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ**» فمنزلٌ على قوم يبادرون إلى الأيمان والشهادات، وأحيانًا تكون كاذبة، فيشهد مجاملة لشخص عزيز عليه، والله أعلم.

أما ما يتعلق بالنواحي الجغرافية والكونية، فقد زعم البعض أن هناك مسائل في الجغرافيا تخالف ما في الكتاب العزيز:

فنقول - وبالله التوفيق: إن كل ما خالف الكتاب العزيز فهو باطل قولًا واحدًا، وكم من الأمور الموجودة الآن على سطح الأرض ولا يُستطاع الوصول إليها ولا التعرف عليها.

فمثلًا عندنا - كمسلمين - أخبارٌ عن يأجوج ومأجوج، وهم موجودون الآن ومحاصرون بالسد، وعددهم أكثر من عددنا، وسيأتي عليهم وقت

(٥٣) البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).
(٥٤) مسلم (١٧١٩).

يخرجون فيه، لكن أين هم الآن؟ لم يتوصل أحد إلى معرفة مكانهم، وهذا الجهل بمكانهم ليس بنافٍ لهم.

أُشكل عليهم قول الله تبارك وتعالى في شأن ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

وأُبين بتوفيق الله بعض الوارد في تفسير الآية الكريمة.

فأقول -وبالله التوفيق-: إن الشمس تجري، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ [يس: ٣٨]، ومستقرها تحت العرش كما قد صحَّ عن رسول الله ﷺ.

إذن فما معنى قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٥، ٨٦]؟

فالمعنى والله تعالى أعلم: أن ذا القرنين سلك طريقًا من الطرق التي يسرها الله له، واتخذ من الأسباب التي أعطاه الله إياها ما يسلك به هذا الطريق، ويتوصل به إلى حيث يريد، فسلك الطريق حتى وصل إلى أقصى مكان من الأرض من ناحية الغرب، فوجد هنالك الشمس، وكأنها تغرب في عين من طينة سوداء، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَمِئَةٍ﴾، فالحمأ: هو الطين.

وقال بعض العلماء: وجدها تغرب في عين حامية حارة.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فأعطاه الله ما بلغ به مغرب الشمس، حتى رأى الشمس في مرأى العين كأنها تغرب في عين حمئة أي: سواد، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أُفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء، وإن كانت في غاية الارتفاع، ووجد عندها -أي عند مغربها- قومًا.

واستشكل بعضهم قول الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ [يس: ٣٨].

فقال بعضهم: الشمس ثابتة تدور حول نفسها ولا تنتقل من مكانها، والأرض هي التي تدور حولها، فكيف يُقال: إن الشمس تجري، وإن لها مستقرًّا تسير إليه ؟!!

كذا قالوا.

وجوابنا: وبكل ثقة، وبكل تصديق لما قاله الله: أن أي خبر يُخبرنا الله به أصدق، وبلا شك ولا تردد من غيره مما خالفه، فإذا قال الله قولًا، وقال آخرون بخلافه، فالقول ما قاله ربنا ﷻ، فنحن نُكذب أي خبر يخالف ما أخبر الله به.

فالشمس تجري كما قال الله تعالى.

﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾، ومستقرها تحت العرش كما أخبرنا بذلك

رسول الله ﷺ.

ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه لما غابت الشمس: «يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ تَسْتَأْذِنُ فِي السُّجُودِ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(٥٥).

وبسياق أطول: أخرج مسلم في «صحيحه» من أبي ذر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمًا: «أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِرُ النَّاسَ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا، ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ لَهَا: ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ؟ ذَاكَ حِينَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾. [الأنعام: ١٥٨].

وفي «صحيح مسلم» (٥٦)أن أبا ذر رضي الله عنه قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ

(٥٥)مسلم حديث (١٥٩)، واللفظ له، وانظر البخاري (٧٤٢٤).
(٥٦)مسلم في طرق الحديث السابق.

تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ قَالَ: «**مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ**».

كذلك استشكلوا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: ٦٧].

فقالوا: كيف تتحرك هذه الكواكب العملاقة من مساراتها وتقذف بها الشياطين؟!! فلزم بيان ذلك دفعًا للاستشكال.

فأقول - وبالله التوفيق: الظاهر - والله تعالى أعلم - أن الذي يُرمى به هو الشهب التي تخرج من النجوم كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠﴾ [الصافات: ١٠].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

أي: جعلنا شهبها، فحذف المضاف، دليله: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠﴾، وعلى هذا فالمصابيح لا تزول ولا يرجم بها.

وقيل: إن الضمير راجع إلى المصابيح على أن الرجم من أنفس الكواكب، ولا يسقط الكوكب نفسه، إنما ينفصل منه شيء يرجم به من غير أن ينقص ضوؤه ولا صورته. قاله أبو علي جوابًا لمن قال: كيف تكون زينة وهي رجوم لا تبقى؟!!

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: ٥] عاد الضمير في قوله:

﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التي فيها السماء، بل بشهبٍ من دونها، وقد تكون مستمدة منها؛ والله أعلم.

فجوابنا: عن كل سؤال يتعلق بالتشريعات أننا كمسلمين دومًا نقول - إذا أمرنا الله تبارك وتعالى، أو أمرنا رسولنا ﷺ - قلنا: سمعًا وطاعة، فنأتمر بما أمرنا الله به، وننتهي عما نهانا الله عنه.

ليس لنا خيار. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

نقول دومًا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فإن سأل سائل: لماذا تطوفون حول الكعبة سبعًا، وترمون الجمرات سبعًا، وتبيتون بمزدلفة، وتقفون بعرفة؟

فجوابنا: أمرنا الله فامتثلنا أمره، والحمد لله على ما وفق من امتثال أمره، ونسأل الله الثبات على ذلك.

كذا جوابنا عن سؤال السائل لماذا تتيممون عند فقدان الماء؟!!

وماذا عساه أن ينفع التيمم؟

فجوابنا: أن الله عز جل أمرنا فامتثلنا أمره.

كذا كيف تمسحون على الخفاف؟ ولماذا المسح على الخفاف؟ ولِمَ تمسحون على أعلى الخف وتتركون أسفله؟ أليس مسح أسفل الخف أولى من مسح أعلاه؟

فجوابنا: أننا أُمرنا فامتثلنا الأمر، والحمد لله.

وهكذا الجواب عن كل ما يتعلق بالتشريعات:

لماذا الطلاق ثلاثًا؟

لماذا العدة (للمطلقة) ثلاثة قروء؟

ولماذا هي للمتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرًا؟

لما تُحرِّمون بالرضاع؟ ولماذا عدد معين من الرضعات؟

فجوابنا: أمرنا الله فاتبعنا أمره، وسنَّ لنا نبينا ﷺ فاتبعنا سنته، ونحن موقنون بأن رسولنا محمدًا ﷺ رسول من عند الله، أنزل الله عليه الوحي، وجاءه جبريل عليه السلام فأمر فأتمر، وتبعناه نحن فيما أمرنا به، واجتنبنا ما نهانا عنه، ورضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

وهكذا الجواب عن كل ما يتعلق بالتشريع الذي شرعه الله وسنه رسو .

مع أنه قد تلتمس التماسات وتُساق أجوبة، لكن الجواب الأصيل هو ما ذُكر من أننا أُمرنا فأتمرنا ونهينا فانتهينا.

ولننظر إلى هذا الإيمان والتسليم والهدي القويم في تلقي أوامر الله ، وأوامر رسوله ﷺ، ثم ما اتبع ذلك من رحمة وتخفيف، وذلك فيما أخرجه مسلم(٥٧) في «صحيحه» من حديث أبي هريرة قال: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

(٥٧) مسلم (حديث ١٢٥).

ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلَاةَ، وَالصِّيَامَ، وَالْجِهَادَ، وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، بَلْ قُولُوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، قَالُوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ قَالَ: نَعَمْ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾. قَالَ: نَعَمْ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾. قَالَ: نَعَمْ. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قَالَ: نَعَمْ».

يقولون: إن شريعتنا ظلم للنساء.

وكذبوا فيما قالوا، فالذي شرع لنا هو الله ﷻ، وربنا ليس بظلام للعبيد، بل يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير!!.

والحمد لله رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، ورضيت نساؤنا بذلك - والحمد لله -.

ثم أقوال: أين هذا الظلم؟!! تعالى الله عن الظلم.

ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

ألم يقل الله ﷻ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ألم يقل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩].

وقد كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل (وله امرأتان) ورث أولياؤه أو أبناؤه من الزوجة الأخرى زوجته، يتصرفون فيها كيف شاءوا، إن شاءوا زوجوها وإن شاء تزوجها بعضهم، وإن شاءوا أعضلوها، فنزلت الآية المذكورة.

أخرج البخاري (٤٥٧٩) من طريق الشيباني عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ الشَّيْبَانِيُّ: وَذَكَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ السُّوَائِيُّ، وَلَا أَظُنُّهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَنِ ابْنِ

عَبَّاسٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ قَالَ: كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ.

ألم ينه الله عن وأد البنات أشد النهي ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨].

ألم ينقم الله على قوم بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

ألم يقول النبي ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا**»(٥٨).

ولقد قال - عليه صلوات الله وسلامه - في حجة الوداع: «**فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ**»(٥٩).

ألم يقل - صلوات الله وسلامه عليه -: «**خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ**»(٦٠).

ألم يقل - صلوات الله وسلامه عليه -: «**رِفْقًا بِالقَوَارِيرِ**»(٦١).

---

(٥٨) البخاري (مع الفتح) (٩/ ٢٥٢)، ومسلم (ص١٠٩١).
(٥٩) مسلم (مع النووي ٣/ ٣٤٥).
(٦٠) **صحيح لشواهده**: أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠).
(٦١) البخاري (٦١٦١)، ومسلم (٢٣٢٣).

ألم يقل: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»(٦٢)

ألم يوص بالأم لما سأله سائل: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ - ثم وبعد الثالثة - قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»(٦٣)

فأين هذا الظلم المزعوم للمرأة!! وأين هذه الإهانة؟!!

ولقد قال ﷺ: «هُنَّ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»(٦٤).

إن المرأة المطيعة لزوجها، ولا أقول طاعة عمياء، إنما الطاعة في المعروف، هذه المرأة ليس لزوجها أي حقٍّ في إيذائها بحال من الأحوال، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

أي: تذكروا إذا أنتم آذيتم النساء وهن لكم مطيعات أن الله أكبر منكم وأعلى منكم، وهو عليكم أقدر من قدرتكم على نسائكم، فاحذروا إذن ظلم النساء.

ولكن ما العمل إذا فسدت المرأة؟ هل تُترك تُفسد في الأرض كيف تشاء؟

ما العمل إذا نشزت المرأة وتمردت على الأوامر وفعلت المحظور المحرم وزوجها هو الذي يكفلها، وهو الذي يرعاها، وهو القيم عليها القائم بسد

(٦٢) مسلم (١٤٦٩).
(٦٣) البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).
(٦٤) حسن لشواهده: أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٧).

جميع احتياجاتها؟

إن الله تبارك وتعالى شرع لنا أجمل شرع وسَنَّ لنا خير السنن، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

فالموعظة الحسنة قُدِّمت في الآية الكريمة!!.

وهجران في المضاجع!!.

وإذا لم يجد كل ذلك فضرب، لكنه، وكما بينته سنة رسول الله ﷺ غير مُبرحٍ(٦٥)، إنه ضربٌ لا يُخضِّر جلدًا ولا يكسر عظمًا، وذلك لصالحها ولصالح استقامتها، وهذا بلا شك خير من الطلاق، خير من الفراق.

أما إذا لم يجد هذا، فهنالك قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠].

فأي ظلم للمرأة في هذا، إنه شرع حكيم، إنه كتاب عزيز، تنزيل من حكيم حميد.

وهناك شبهة يوردها أهل الكفر والمبطلون:

يقولون: لماذا تبيحون الطلاق؟ ومن ثَمَّ تهدمون الأُسر؟

الجواب: ابتداءً وبالله التوفيق: فالله ﷻ هو الذي أباح الطلاق، وسبق

---

(٦٥) ففي حديثه ﷺ في حجة الوداع: «وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ...» «مسلم مع النووي» (٣/ ٣٤٥).

وبينا أننا لشرع الله ممتثلون، ثم إننا نلتمس تعليلات **فأقول وبالله التوفيق**:

ما العمل إذا تزوج رجل امرأة يظنها صالحة فوجدها غير ذلك؟ يظنها أمينة فوجدها خائنة؟ يظنها جميلة فوجدها دميمة؟!!

ماذا يصنع المسكين؟!!

وماذا تصنع المسكينة التي ابتُليت بزوج تظنه صالحًا، فوجدته فاسقًا؟، تظنه رحيمًا رفيقًا فوجدته ظالمًا غشومًا؟

هل يعيش الصالح وتعيش الصالحة أبد الدهر في نكدٍ وتعاسةٍ؟ أم ماذا تصنع؟

وهب أن الرجل أحب امرأة أخرى هل يزني بها أم ماذا يصنع إذا تمكن حبها من قبله، وزهد في الأولى زهدًا شديدًا؟

إن الأوربيين كثيرًا منهم منع الطلاق، فتفشت فيهم الفواحش والرذائل، واختلطت عندهم الأنساب.

أما في شرعنا؛ فلقد قال ربنا: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠].

ثم إن هذا الطلاق لا يصار إليه في كل الأحوال، ولا يُرشد إليه في كل الأوقات؛ وذلك لأنه لغير الحاجة مكروه كراهية شديدة.

فرسولنا ﷺ قال: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا، وَكَذَا،**

فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا !! قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ»(٦٦).

فاللجوء إلى الطلاق يكون لاختيار أخف المفسدتين واتقاء أعظم الضررين، أو رغبة في أجر أعظم... إلى غير ذلك من الأسباب، وإلا فهو مكروه.

وقد أوصى الخليل إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل أن يُغيِّر عتبة بابه.

ففي «الصحيح» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: «... فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ. فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ. فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ. قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ ذَاكِ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ. فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ.

---

(٦٦) مسلم في (طرق حديث ٢٨١٣).

فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ اللَّحْمُ. قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ. قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ - وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ - فَسَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ»(٦٧).

أقول - وبالله التوفيق : قد تلتمس التماسات، فمثلًا كجواب على قول القائل: لماذا عندكم من طلق امرأته ثلاثًا لا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره؟

فأقول ملتمسًا توفيق الله : إن الذي طلق امرأته ثلاثًا قد دلل بطلاقه هذا على سوء المعاشرة بينهما، إما منه، وإما منها، وذلك لتكرار هذا الطلاق!!.

فإذا تزوجت - بعد هذه التطليقات الثلاث - رجلًا آخر فقد تتناسب خصالها مع خصاله، وطباعها مع طبائعه، فالأرواح جنود مجندة، ولعلها تجد فيه ما لم تجده في الزوج الأول، فتقر عينها به، وتستقيم له بعد أن كانت

(٦٧) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

ناشزًا مع الأول.

وكذا الزوج إذا تزوج غيرها، لعله يجد في زوجته الثانية ما لم يجده في الزوجة الأولى من الخصال وغيرها، فيستقيم معها وتستقيم معه!! نعم قد يكون هذا.

وقد لا يكون. بأن تكون المرأة التي طُلقت ثلاثًا كانت تظن في الرجال أمرًا معينًا لم تجده في الأول، فلما لم تجده في الثاني وطلقت منه اعتذرت وندمت على ما صدر منها مع زوجها الأول، فترجع مستقيمة طائعة - إذا شاء الله ذلك - !!.

والزوج كذلك، قد يظن أن النسوة تجتمع فيهن خصال الخير، ويرى أن خصلة من خصال الخير قد تخلفت عن الزوجة الأول، ثم لما تزوج الثانية وجد عددًا من خصال الخير قد تخلفت فيها، فيعلم حينئذ أن النساء ناقصات عقل ودين، وأنهن لم يكملن، فيعيد نظره في المسائل بعد ذلك!! «ولَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، ولَا يَبْخَسُهَا حَقَّهَا».

إلى غير ذلك من الالتماسات التي قد تُلتمس.

لكن، وكما قلت آنفًا: إن الجواب الأصل: أن الله ﷻ أمرنا فأتمرنا، وقلنا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير!!.

وبعض الشراح لما تناولوا حديث رسول الله ﷺ بالشرح والبيان، ألا وهو قوله ﷺ: «إِذَا زَنَتِ الْأَمَةُ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَجْلِدْهَا وَلَا يُثَرِّبْ، ثُمَّ إِنْ

زَنَتْ، فَلْيَجْلِدْهَا وَلَا يُثَرِّبْ، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّالِثَةَ، فَلْيَبِعْهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعَرٍ»(٦٨).

وفي رواية: «ثُمَّ إِذَا زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ بِيعُوهَا وَلَوْ بِضَفِيرٍ».

قالوا عند شرحهم لهذا الحديث: كيف تُباع الأمة وهي زانية؟!!

فأجيب عن ذلك: بأن في ذلك فائدة من وجهين:

الأول: لعلها تُباع لشخص قوي فيعفها عن الزنا.

الثاني: لعلها تُباع لشخص شديد يأخذ على يديها ويزجرها، فتنتهي عن الزنا.

وهناك شبه أخرى.

فيقول بعضهم: لماذا تقصرون الصلاة في السفر؟

نقول: أمرنا الله بذلك، أذن الله لنا بذلك، وسنَّ لنا نبينا محمد ﷺ ذلك.

لماذا لا تأكلون الخنزير؟

نقول: نهانا الله عن أكل الخنزير، وكذا نهانا النبي محمد ﷺ.

فكل جواب مرده إلى هذا الأصل.

---

(٦٨) الحديث أخرجه البخاري (٢١٥٢)، ومسلم (١٧٠٣).

لذا فطفلنا الصغير الذي لم يدرس في الجامعات، ورجلنا الرجل الأمي الذي لم يتعلم، لكن فهم أن له ربًّا، وأن له رسولًا يستطيع - وبإذن الله - أن يجادل، وأن يحاجج أكبر حَبْر من اليهود أو من النصارى وغيرهم؛ لأنه يرد كل الأمور إلى الله تبارك وتعالى، ثم إلى رسوله محمد ﷺ.

أنكر قوم تحوُّل القبلة، فقالوا: كيف يُصلي المسلمون إلى قبلة اليوم ويتحولون عنها غدًا، فما بال الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس قبل أن تُحول القبلة إلى الكعبة؟

وابتداءً: كبيان لأمر الذين ماتوا وكانوا قبل موتهم يصلون إلى بيت المقدس قبل أن تحول القبلة، فقد بين ربنا سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: ما كان الله ليذهب بثواب صلاتكم التي صليتموها قِبَلَ بيت المقدس.

وقد أخرج البخاري في «صحيحه»(٦٩) من حديث الْبَرَاءِ بن عازب رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا - أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا -، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوْ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ قَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

(٦٩) البخاري (٤٤٨٦)، ومسلم (٥٢٥).

لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

أما الجواب عن أصل المسألة وهي مسألة تحول القبلة:

فقد أُجيب عنه - ولله الحمد - في الآية الكريمة نفسها، إذ الله قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾ [البقرة: ١٤٢]. فالمعنى ، والله أعلم: قل لله ملك المشرق والمغرب وما بينها، وله الحكم والتصرف والأمر فيهما.

والمراد: أن العبرة بامتثال أوامر الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنا، فالطاعة في امتثال أمره ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبيده وفي تصريفه وخدامه، حيثما وجهنا توجهنا، وهو - تعالى - له بعبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وأمته عناية عظيمة، إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

أما لماذا وُجِّه المسلمون أولًا إلى بيت المقدس ثم حُوِّلوا إلى الكعبة؟

فجواب هذا: أن هذا اختبار من الله ﷻ وامتحان ليظهر المنافق المرتاب من المؤمن الموقن كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فقال أهل النفاق لما حُولت القبلة: ما بال محمد يحولنا مرة إلى هاهنا، ومرة إلى هاهنا؟

وقال بعض المسلمين: كيف بإخواننا الذين ماتوا وقتلوا وكانوا يصلون إلى بيت المقدس؟

وقال أهل الشرك: كما رجع محمد إلى قبلتنا فسيرجع إلى ديننا.

أما أهل الإيمان الكامل واليقين الصادق فعلموا أن كل ذلك حق، وأنه من عند الله سبحانه، وسمعوا له وأطاعوا، ورضوا به، وقرت أعينهم به، والله أعلم.

هذا؛ وثَمَّ وجه آخر، ألا وهو: قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وهذه الحجة - والله أعلم - هي مجادلة أهل الكتاب ومجادلة المشركين في شأن القبلة.

أما أهل الكتاب فوجه جدالهم يتمثل في قولهم: إن كنت يا محمد تزعم أننا على باطل، فلماذا تتجه إلى قبلتنا في صلاتك، أليس اتجاهك إلى قبلتنا في صلاتك يؤكد أننا على الحق، وأن قبلتنا هي الصواب؟ فوجه الله نبيه ﷺ

إلى الاتجاه إلى البيت الحرام لقطع هذه الحجة.

وتتمثل مجادلة أهل الكتاب أيضًا في أنهم يجدون في كتبهم أن هذا النبي ﷺ سيكون من أمره أن يصلي إلى الكعبة، فلما لم يتجه رسول الله ﷺ في صلاته إلى الكعبة يبقى في نفوسهم شك في صفته وصفة أفعاله، نقطعًا لهذا الاحتجاج أمر الله نبيه ﷺ بالاتجاه إلى البيت الحرام.

أما مجادلة أهل الشرك فتتمثل في قولهم: إن كنت يا محمد تزعم أنك أولى الناس بإبراهيم لكونك من ولده عليه السلام، فلماذا تنحرف عن قبلته وتتجه إلى بيت المقدس، فقطع الله ﷻ حجة المشركين هذه بأن أمر نبيه ﷺ بالاتجاه إلى البيت الحرام.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]. فلأهل العلم في تعيين الذين ظلموا أقوال، فقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ مشركو قريش أو مشركو العرب بصفة عامة.

فقد صحَّ عن مجاهد(٧٠) من وجوه أنه قال: هم مشركو قريش. - وفي رواية -: مشركو العرب.

وروى الطبري ذلك بإسناد حسن(٧١) عن قتادة أيضًا قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾، والذين ظلموا مشركو قريش.

أما الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ فلأهل العلم

(٧٠) الطبري (٢٢٩٧)، (٢٢٩٩).
(٧١) الطبري (٢٢٩٨).

فيه قولان:

أحدهما: إن الحجج كلها قطعت، لكن بقي الذين ظلموا ليس لهم حجة، ولكنهم يجادلون بالباطل.

ومنهم من قال: إن الذين ظلموا: (وهم مشركو قريش) بقيت لهم حجة (إن استجيز أن يطلق على الباطل وعلى الشبهات حجة)، وهي متعلقهم بتوجه رسول الله ﷺ إلى الكعبة فقالوا: ها هو قد رجع إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا، فمن ثم قال تعالى للمؤمنين: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] فيما يلقون من شبه.



شبهة يُثيرونها حول ميراث المرأة والجواب عن هذه الشبهة

يقولون: إنه ظُلم للمرأة أن تأخذ نصف الرجل من الميراث، بل قائلو ذلك هم الظالمون هم الفاسقون، إن رب العزة حكمٌ عدلٌ عليمٌ خبيرٌ.

جعل الرجال قوامين على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما جبل عليه الرجال من القوة والجلادة والفهم، وبما أنفقوا من أموالهم - أي بالنفقة التي يبذلها الرجل كصداق لزوجته - ثم بسائر النفقة التي ينفقها الرجل على زوجته وأولاده.

فالرجل ملزم بالإنفاق على زوجته، وإن كان أبوها وزيرًا أو ملكًا، وليست هي الملزمة بالإنفاق، فمن ثم فالتزامات الرجل أكبر من التزامات المرأة.

فجاء الشرع الحنيف حاملًا تشريعًا حميدًا: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

فلم تحرم المرأة من الميراث؟ وكذا لم تستو في هذا المقام بأخيها الذكر الملزم بالإنفاق، وهذا إذا كان ميراثها من الأب أو الأم.

فالحمد لله، ثم الحمد لله، ثم الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شاء الله من شيء بعد.

بيد أن هناك حالات أُخر تستوي فيها المرأة مع الرجل في الميراث، بل وقد تزيد في بعضها، وفي كل ذلك المرد إلى الله ﷻ يفعل ما يريد ويقضي ما يشاء.



شبهة تُثار حول شهادة المرأة والجواب عنها

وما ذكروه من انتقاد لكون شهادة المرأة تعدل نصف شهادة الرجل، فهذا زيغ منهم وضلال، فالذي شرع هو الله، والذي خلق الخلق هو الله، هو أعلم بالمرأة وبعقلها وبتفكيرها، وهو أعلم بالرجل، ولقد قال حين شرع: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولقد وصفهن رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى بأنهن: «**نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ**»(٧٢).

وكفانا ما قضى الله به، ثم ما وصف به رسول الله ﷺ النساء.



(٧٢) البخاري (حديث ٣٠٤) من حديث أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**». فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**». قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟**» قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ**». قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**».
وأخرج نحوه مسلم (حديث ٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قضية الحجاب

وإنهم يبغونها عوجًا حينما ينقمون علينا تحجب المرأة.

إنهم يبغون للمرأة السفور المفضي إلى الافتنان بها، بل وفتنتها هي الأخرى بالرجال!!.

يبغونها تجالس الرجال، وتضاحكهم، وتُسامرهم، وتمازحهم ذاك السمر والمزاح المفضي إلى الزنا والفاحشة، المفضي من ثَمَّ إلى اختلاط الأنساب.

فلا يدري الوالد من ولده؟ ولا يدري الولد من والده؟، بل وكل متشكك في الآخر!!.

إنهم يُفقدون الرجل الغيرة والشهامة، ويورثونه الدياثة، وهو يرى امرأته تُكلم الرجال وتخوض مع الخائضين ولا ينكر ولا يتكلم!!.

يضيعون الأديان، يريدون مخالفة أمر الرحيم الرحمن!!.

يخلطون الأنساب -يرتكبون الفواحش- يفقدون الناس الغيرة والشهامة -يُمزقون الأعراض!!

حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم حسبنا الله ونعم الوكيل.

قطع يد السارق

يتكلمون عن قطع يد السارق، ويطعنون في ديننا بسبب ذلك.

فأقول - وبالله التوفيق -: إن الذي شرع ذلك هو الله، فقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨].

فلما أمر ربنا وحكم قلنا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

يقول الطاعنون: كيف تقطع يد السارق فيصبح اللصوص عالة على مجتمعاتهم؟

فنقول - وبالله التوفيق - وبعد الإذعان بقولنا: سمعنا وأطعنا والإقرار بقلوبنا: إن قطع يد السارق تطهير للمجتمع وإزالة للشر عنه، فمن سولت له نفسه أن يسرق، فذكر أن يده ستُقطع، لزامًا أن يفكر وأن يفكر ويفكر قبل أن تمتد يده الآثمة إلى أموال الناس.

إننا سنوفر قطاعًا كبيرًا من رجال الشرطة الذين يطاردون اللصوص إذا قطعت يد السارق.

إننا في دنيانا قد نذهب لطبيب حاذق فيفتي أحيانًا بإزالة عضو من الأعضاء، فلا يجد أهل المريض بُدًّا من اتباعه، وخاصة إذا علل الطبيب لهم بأن بقاء هذا العضو سيؤثر سلبًا على بقية الأعضاء، وسيتسبب في

إهلاك المريض.

فكيف نقبل قول طبيب إذا نصح، ونرد قول ربنا العليم الخبير؟!!

أقول أيضًا: إن قومًا كبني إسرائيل أمرهم الله لقبول توبتهم - بعد أن عبدوا العجل - بقتل أنفسهم، ففعلوا ذلك، وقد قال تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٥٤].

أقول كذلك: إن قطع يد السارق تطهير له وإزالة للذنب عنه، وكذلك الحدود - عمومًا - فهي كفارات لأهلها، فسيحمد السارق يوم القيامة من أقام فيه حكم الله ﷻ في الدنيا.

أُذكِّر أيضًا: الذي سُرق ماله، أنه إذا أخذتك رأفة بالسارق، فلتأخذك الرأفة بالمسروق منه.

أُذكِّر أيضًا: بأنه ليس كل سارق تُقطع يده، إنما لذلك فقه، وله ضوابط، فللسرقة في أيام المجاعات أحكام، وللسرقة من المال المحرز أحكام، ولغير المحرز أحكام، والمأكول من حديقة أو بستان له أحكام، وفي ذلك تفاصيل محلها كتب الفقه والأحكام، فليراجعها من شاء.

وأسوق هنا ما أورده بعض الزنادقة من اعتراضات على دية اليد.

إذ قال:

يدٌ بخمس مئين عسجدٍ وُديت ... فما بالها قطعت في ربع دينار؟!!

يريد هذا الزائغ أن يقول: إن دية اليد عندكم خمسون من الإبل، فلم تقطعونها في ربع دينار فصاعدًا(٧٣)؟!!

فأجابه شاعر الإسلام بقوله:

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

أي أن اليد لما كانت أمينة كانت غالية، ولكنها لما سرقت ذلت وهانت.

ونقول: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا.

ولقد أنكر الكفار واليهود والنصارى أمورًا أباحها الله تبارك وتعالى لنا.

وجوابنا: أن الله أباح لنا، فاستبحنا ما أباحه الله لنا.

أنكروا علينا كفارة اليمين

وقالوا لزامًا: إذا حلف الشخص يمينًا أن يمضي فيها ولا يفعل غيرها.

قلنا: أباح الله لنا الرجوع عما حلفنا عليه، إذ رأينا غيره خيرًا منه، وتلك رحمة من الله ﷻ بهذه الأمة - أمة محمد ﷺ -.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ

(٧٣) صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبُعِ دِينَارٍ». أخرجه البخاري (٦٧٨٩، ٦٧٩٠).

كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

ولقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

أي: لا تجعلوا اليمين التي حلفتموها على شيء يخالف أمر الله ﷻ حائلة بينكم وبين فعل الخير، بل كفِّروا عن أيمانكم وافعلوا الخير.

فمثلًا: إذا حلف شخص ألا يُصلح بين الناس، فأتاه شخص وقال: هلم فأصلح بيني وبين أخي، فلا يتعلل باليمين التي حلف ويقول: لن أصلح؛ لأنني حلفت، بل يُكفِّر عن يمينه ويُصلح بين الناس.

وكذلك إذا حلف شخص ألا يصل الرحم، فذكَّرهُ مذكِّرٌ، فلا يتعلل ويقول: لن أصل الرحم؛ لأنني حلفت ألا أصلها، بل يُكفر عن يمينه ويصل رحمه، وهكذا إذا حلف على الامتناع عن فعل برٍّ فليفعل البر ويكفر عن يمينه.

وقد جاءت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

فمن ذلك: قول رسول الله ﷺ: «**لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتُ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي**»(٧٤).

وعند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَفْعَلْ**»(٧٥).

---

(٧٤) البخاري (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩).
(٧٥) مسلم (١٦٥٠).

وفي «الصحيحين»: أن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه: «وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَائْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»[٧٦].

وعند مسلم[٧٧] من حديث عدي: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى أَتْقَى لِلَّهِ مِنْهَا فَلْيَأْتِ التَّقْوَى».

أنكروا علينا ما جوَّزه الله تبارك وتعالى لنا عند الإكراه من التلفظ بكلمة الكفر.

إذ الله قال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦].

فكان جوابنا: أن الله رخص لنا فقبلنا الرخصة التي رخص الله لنا!!.

وما ذنبنا إذا كان الله ﷻ جعل على قوم آصارًا ووضعها الله عنا، فهذه مِنَّةٌ مَنَّ الله بها علينا، ولقد قال الله سبحانه وتعالى في شأن نبينا محمد ﷺ وما جاء به من الهدى والنور لأمته: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(٧٦) البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).
(٧٧) مسلم (١٦٥١).

وأُبيح لنا عند الاضطرار أكل الميتة!!

وأُبيح لنا عند فقدان الماء أن نتيمم !!

وأُبيح لنا إذا عجزنا عن الصلاة قيامًا أن نصلي جلوسًا ، فإذا عجزنا عن الصلاة جلوسًا فلنصل على جنب(٧٨)

وأُبيح لنا عند المرض والسفر أن نفطر في رمضان.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]،

أنكروا علينا ما شرعه الله لنا من إعطاء المؤلفة قلوبهم جزءًا من مال الزكاة.

فقالوا: كيف تجوزون إعطاء المؤلفة قلوبهم مالًا كي يسلموا أو كي يثبتوا على إسلامهم؟!!

(٧٨) أخرج البخاري (١١١٧) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّلَاةِ فَقَالَ: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**».

فكان الجواب: أن الله شرع ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٠].

وربنا سبحانه وتعالى أعلم بخلقه، وأعلم بما يُصلحهم!!.

وأنكروا علينا الغنائم التي أحلها الله لنا

فقد قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

فقبلنا ما أحله الله لنا، وإن أنكروا ذلك علينا الكافرون، وإن أنكر علينا ذلك من يهودي أو نصراني!!.

ولقد قال نبينا ﷺ: «وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ»(٧٩).

أنكروا علينا ما شرعه الله لنا من القتال وما أذن لنا فيه من ذلك، بل وما أمرنا الله به من ذلك

إذ الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وقال أيضًا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن

---

(٧٩) البخاري (حديث ٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

وجوابنا دائمًا: أن الله ﷻ أمرنا فامتثلنا أمره، وقلنا: سمعًا وطاعةً، قلنا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ثم بيان يُلتمس حاصله أننا إذا رأينا قومًا يفسدون في الأرض، بل ويعيثون فيها فسادًا أيُتركون حتى يعيثوا في الأرض فسادًا؟! أم يُمنعوا من الفساد حفاظًا على الناس من شرهم، وأيضًا نُصرة لهم بمنعهم من ظلمهم!!.

إننا إذا منعنا الظالم من الظلم، فقد أحسنا إليه ولم نُسئ إليه.

إننا إذا منعنا الكافر من كفره، فقد أحسنا إليه ولم نسئ إليه!!.

ألم نُحسن إليه إذا أنقذناه من نار جهنم؟!!

ألم نُحسن إليه إذا أجبرناه على توحيد الله ﷻ؟!!

ألم نُحسن إليه إذا حملناه على اتباع شرع الله وترك شرعة الشيطان؟!!

وماذا نصنع إذا أصرَّ على المُضي في الفساد والاستمرار على الكفر وصد غيره عن سبيل الله، وتضليل غيره، وتزيين الباطل والمنكر له؟!!

حينئذ لابد من الأخذ على يديه!!

لابد من منع الظالم من ظلمه!!.

لابد من استنقاذ البشر من التيه والضلال والكفر والشرك، وإن أدى ذلك إلى القتال، وإن استدعى ذلك القتال!!

ولقد قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

إن شريعتنا فيها التضحية، وفيها نصرة المظلوم، وفيها منع الظالم من ظلمه.

وأي ظلم أكبر من الشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ومن الغريب أن ينكروا علينا قول ربنا لنا: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

فعجيب حقًّا أن ينكروا علينا مثل ذلك؟!!

فأقول - وبالله التوفيق: هذا أمر ربنا! وهذا ترخيص ربنا لنا وإذنٌ من ربنا لنا!!.

فالمعتدي إذا علم أنه سينال جزاءه انكف عن الاعتداء وامتنع عنه، وإلا فكثير من المعتدين يتمادون في الغي والضلال والفساد إذا لم يجدوا من يوقفهم ومن يرد عليهم، ويحول بينهم وبين عدوانهم.

فردعُ المعتدي مانع للفساد في الأرض!!

والقصاص من الظالم ردع له عن الجنايات!!

ولقد أثنى الله على أهل الإيمان بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ

يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٣٩، ٤٠].

ولكن مع هذا كله أرشدنا الله إلى العفو، وحثنا عليه، ورغبنا فيه في عدة آيات.

قال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى ٤٣].

فهنالك مواطن نعفو فيها عن الناس، وهنالك مواطن يُردع فيها الظالم المفسد في الأرض!!.

وعلى كلٍّ فالذي شرع هو الله، وهو أعلم بمن خلق، وأعلم بما يصلح عباده ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]!!.

وأنكروا علينا إباحة تعدد الزوجات

والذي شرع لنا ذلك وأباحه لنا هو الله ﷻ

فقد قال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾﴾ [النساء: ٣].

وقال نبينا محمد ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»(٨٠).

وقال: «تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ»(٨١).

«وكان النبي ﷺ يطوف على نسائه في ليلة واحدة وله تسع نسوة»(٨٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما لسعيد بن جبير رحمه الله: «تزَوَّجْ فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً»(٨٣).

وأخرج البخاري(٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فَنَكَحَهَا، وَكَانَ لَهَا عَذْقٌ، وَكَانَ يُمْسِكُهَا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ، فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾.

وعند البخاري أيضًا(٨٥) أن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾. فَقَالَتْ: يَا ابْنَ أُخْتِي هَذِهِ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا تَشْرَكُهُ فِي مَالِهِ وَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَنُهُوا عَنْ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ وَيَبْلُغُوا لَهُنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ،

(٨٠) مسلم (حديث ١٤٦٧).
(٨١) صحيح: أخرجه أبو داود (حديث ٢٠٥٠) وغيره.
والودود هي التي تحب زوجها، والولود التي تكثر ولادتها.
(٨٢) البخاري (٥٠٦٨).
(٨٣) البخاري (٥٠٦٩).
(٨٤) البخاري (٤٥٧٣).
(٨٥) (٤٥٧٦).

فَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ.

قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَإِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ قَالَتْ: عَائِشَةُ وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ. قَالَتْ: فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا عَنْ مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهِ وَجَمَالِهِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ إِذَا كُنَّ قَلِيلَاتِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ».

وقال رسول الله ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ**»...... فذكر منها: «**وَلَدًا صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ**»(٨٦).

وقال ﷺ: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»(٨٧).

أي أن الرجل إذا جامع زوجته فله في ذلك أجر إن شاء الله تعالى.

وكل هذه الأدلة تدل على استحباب الإكثار من الزوجات، ومحل ذلك الاستحباب إذا قدر الرجل على العدل بين الزوجات؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ٣]، وإذا أمن الرجل على نفسه الافتتان بهن، وعدم تضييع حق الله عليه بسببهن، والشغل عن عبادة ربه من أجلهن. وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

---

(٨٦) مسلم (حديث ١٦٣١).
(٨٧) مسلم (حديث ١٠٠٦).

وأيضًا يرى من نفسه المقدرة على إعفافهن وتحصينهن حتى لا يجلب الفساد إليهن، فالله لا يحب الفساد، وأيضًا يكون بوسعه أن ينفق عليهن، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، والله تعالى أعلم.

قولٌ سديدٌ للشنقيطي رحمه الله في مسألة تعدد الزوجات:

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله «أضواء البيان» (٣/ ٣٧٧):

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم إباحته تعدد الزوجات إلى أربع، وأن الرجل إذا خاف عدم العدل بينهن لزمه الاقتصار على واحدة أو مِلك يمينه كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها هي إباحة تعدد الزوجات لأمور محسوسة يعرفها كل العقلاء:

منها: أن المرأة الواحدة تحيض وتمرض وتنفس إلى غير ذلك من العوائق المانعة من قيامها بأخص لوازم الزوجية، والرجل مستعد للتسبب في زيادة الأمة، فلو حُبس عليها في أحوال أعذارها لعطلت منافعه باطلًا في غير ذنب.

ومنها: أن الله أجرى العادة بأن الرجال أقل عددًا من النساء في أقطار الدنيا، وأكثر تعرضًا لأسباب الموت منهن في جميع ميادين الحياة، فلو قُصر

الرجل على واحدة لبقي عدد ضخم من النساء محرومًا من الأزواج فيضطرون إلى ركوب الفاحشة، فالعدول عن هدي القرآن في هذه المسألة من أعظم أسباب ضياع الأخلاق، والانحطاط إلى درجة البهائم في عدم الصيانة، والمحافظة على الشرف والمروءة والأخلاق، فسبحان الحكيم الخبير ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ومنها: أن الإناث كلهن مستعدات للزواج، وكثير من الرجال لا قدرة لهم على القيام بلوازم الزواج لفقرهم، فالمستعدون للزواج من الرجال أقل من المستعدات له من النساء؛ لأن المرأة لا عائق لها، والرجل يعوقه الفقر وعدم القدرة على لوازم النكاح، فلو قُصر الواحد على الواحدة لضاع كثير من المستعدات للزواج أيضًا بعدم وجود أزواج، فيكون ذلك سببًا لضياع الفضيلة وتفشي الرذيلة، والانحطاط الخلقي وضياع القيم الإنسانية كما هو واضح.

فإن خاف الرجل ألا يعدل بينهن وجب عليه الاقتصار على واحدة أو ما ملك يمينه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] الآية.

والميل بالتفضيل في الحقوق الشرعية بينهن لا يجوز؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

أما الميل الطبيعي بمحبة بعضهن أكثر من بعض فهو غير مستطاع دفعه للبشر؛ لأنه انفعال وتأثير نفساني لا فعل، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَن

﴿تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ١٢٩]. . . الآية كما أوضحناه في غير هذا الموضع.

وما يزعمه بعض الملاحدة من أعداء دين الإسلام من أن تعدد الزوجات يلزمه الخصام والشغب الدائم المفضي إلى نكد الحياة؛ لأنه كلما أرضى إحدى الضرتين سخطت الأخرى، فهو بين سخطتين دائمًا، وأن هذا ليس من الحكمة، فهو كلام ساقط يظهر سقوطه لكل عاقل؛ لأن الخصام والمشاغبة بين أفراد أهل البيت لا انفكاك عنه البتة، فيقع بين الرجل وأمه، وبينه وبين أبيه، وبينه وبين أولاده، وبينه وبين زوجته الواحدة، فهو أمر عادي ليس له كبير شأن، وهو في جنب المصالح العظيمة التي ذكرنا في تعدد الزوجات من صيانة النساء، وتيسير التزويج لجميعهن، وكثرة عدد الأمة لتقوم بعددها الكثير في وجه أعداء الإسلام كلا شيء؛ لأن المصلحة العظمى يقدم جلبُها على دفع المفسدة الصغرى.

فلو فرضنا أن المشاغبة المزعومة في تعدد الزوجات مفسدة، أو أن إيلام قلب الزوجة الأولى بالضرة مفسدة لقُدمت عليها تلك المصالح الراجحة التي ذكرنا كما هو معروف في الأصول.

قال في «مراقي السعود» عاطفًا على ما تلغى المفسدة المرجوحة في جنب المصلحة الراجحة:

أو رَجَحَ الإصلاحُ كالأسارى　　　تُفدَى بما ينفع للنصارى

وانظر تَدَلِّي دوالي العنب　　　في كل مشرق وكل مغرب

ففداء الأسارى مصلحة راجحة، ودفع فدائهم النافع للعدو مفسدة مرجوحة، فتقدم عليها المصلحة الراجحة، أما إذا تساوت المصلحة والمفسدة أو كانت المفسدة أرجح كفداء الأسارى بسلاح يتمكن بسببه العدو من قتل قدر الأسارى أو أكثر من المسلمين، فإن المصلحة تُلغى لكونها غير راجحة، كما قال في «المراقي»:

أخرم مناسبًا بمفسد لزم   للحكم وهو غير مرجوح علم

وكذلك العنب تعصر منه الخمر وهي أم الخبائث، إلا أن مصلحة وجود العنب والزبيب والانتفاع بهما في أقطار الدنيا مصلحة راجحة على مفسدة عصر الخمر منها ألغيت لها تلك المفسدة المرجوحة.

واجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد يكون سببًا لحصول الزنى، إلا أن التعاون بين المجتمع من ذكور وإناث مصلحة أرجح من تلك المفسدة، ولذا لم يقل أحد من العلماء: إنه يجب عزل النساء في محل مستقل عن الرجال، وأن يُجعل عليهن حصنٌ قوي لا يمكن الوصول إليهن معه، وتجعل المفاتيح بيد أمين معروف بالتقى والديانة كما هو مقرر في الأصول.

فالقرآن أباح تعدد الزوجات لمصلحة المرأة في عدم حرمانها من الزواج؛ ولمصلحة الرجل بعدم تعطل منافعه في حال قيام العذر بالمرأة الواحدة، ولمصلحة الأمة ليكثر عددها فيمكنها مقاومة عدوها لتكون كلمة الله هي العليا، فهو تشريع حكيم خبير لا يطعن فيه إلا من أعمى الله بصيرته بظلمات الكفر.

وتحديد الزوجات بأربع تحديد من حكيم خبير، وهو أمر وسط بين القلة المفضية إلى تعطيل بعض منافع الرجال وبين الكثرة التي هي مظنة عدم القدرة على القيام بلوازم الزوجية للجميع. والعلم عند الله تعالى.

كلام نفيس للشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعدد الزوجات:

قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله «عمدة التفاسير» (٣/ ١٠٢):

نبتت في عصرنا هذا الذي نحيا فيه نابتة إفرنجية العقل، نصرانية العاطفة، رباهم الإفرنج في ديارنا وديارهم، وأرضعوهم عقائدهم، صريحة تارة، وممزوجة تارات، حتى لبَّسوا عليهم تفكيرهم، وغلبوهم على فطرتهم الإسلامية، فصار هجيراهم وديدنهم أن ينكروا تعدد الزوجات، وأن يروه عملًا بشعًا غير مستساغ في نظرهم، فمنهم من يصرح ومنهم من يجمجم، وجاراهم في ذلك بعض من ينتسب إلى العلم من أهل الأزهر المنتسبين للدين والذين كان من واجبهم أن يدفعوا عنه، وأن يُعرِّفوا الجاهلين حقائق الشريعة، فقام من علماء الأزهر من يمهد لهؤلاء الإفرنج العقيدة والتربية للحد من تعدد الزوجات.

ولم يدرك هؤلاء العلماء أن الذين يحاولون استرضاءهم لا يريدون إلا أن يزيلوا كل أثر لتعدد الزوجات في بلاد الإسلام، وأنهم لا يرضون عنهم إلا إن جاروهم في تحريمه ومنعه جملة وتفصيلًا، وأنهم يأبون أن يوجد على أي

وجه من الوجوه؛ لأنه منكر بشع في نظر سادتهم الخواجات.

وزاد الأمر وطم حتى سمعنا حكومة من الحكومات التي تنتسب للإسلام وضعت في بلادها قانونًا منعت فيه تعدد الزوجات جملة، بل صرحت تلك الحكومة باللفظ المنكر: إن تعدد الزوجات - عندهم - صار حرامًا، ولم يعرف رجال تلك الحكومة أنهم بهذا اللفظ الجريء المجرم صاروا مرتدين خارجين من دين الإسلام، تجري عليهم وعلى من يرضى عن عملهم كل أحكام الردة المعروفة التي يعرفها كل مسلم، بل لعلهم يعرفون ويدخلون في الكفر والردة عامدين عالمين.

بل إن أحد الرجال الذين ابتُلي الأزهر بانتسابهم إلى علمائه تجرأ مرة وكتب بالقول الصريح أن الإسلام يحرم تعدد الزوجات، جرأة على الله، وافتراء على دينه الذي فُرض أن يكون هو من حفظته القائمين على نصره!!.

واجترأ بعض من يعرف القراءة والكتابة - من الرجال والنسوان - فجعلوا أنفسهم مجتهدين في الدين يستنبطون الأحكام، ويفتون في الحلال والحرام، ويَسبُّون علماء الإسلام إذا أرادوا أن يعلموهم ويقفوهم عند حدهم، وأكثر هؤلاء الأجرياء من الرجال والنساء لا يعرفون كيف يتوضئون ولا كيف يصلون، بل لا يعرفون كيف يتطهرون، ولكنهم في مسألة تعدد الزوجات مجتهدون!!.

بل لقد رأينا من يخوض منهم فيما لا يعلم يستدل بآيات القرآن بالمعنى؛ لأنه لا يعرف اللفظ القرآني!!

وعن صنيعهم هذا الإجرامي، وعن جرأتهم هذه المنكرة، وعن كفرهم البواح دخل في الأمر غير المسلمين وكتبوا آراءهم مجتهدين!! كسابقيهم يستنبطون من القرآن - وهم لا يؤمنون به - ليخدعوا المسلمين ويضلوهم عن دينهم، حتى إن أحد الكتاب غير المسلمين كتب في إحدى الصحف اليومية التي ظاهر أمرها أن أصحابها مسلمون كتب مقالًا بعنوان «تعدد الزوجات وصمة»، فشتم بهذه الجرأة الشريعة الإسلامية، وشتم جميع المسلمين من بدء الإسلام إلى الآن، ولم نجد أحدًا حرك في ذلك ساكنًا، مع أن اليقين أن لو كان العكس، وأن لو تجرأ كاتب مسلم على شتم شريعة ذلك الكاتب لقامت الدنيا وقعدت، ولكن المسلمين مؤدبون.

وبعد :فإن أول ما اصطنعوا من ذلك : أن اصطنعوا الشفقة على الأسرة والأبناء خاصة، وزعموا أن تعدد الزوجات سبب لكثرة المتشردين من الأطفال، بل أكثر هؤلاء من آباء فقراء تزوجوا أكثر من واحدة، وهم في ذلك كاذبون، والإحصاءات التي يستندون إليها هي التي تكذبهم، فأرادوا أن يشرعوا قانونًا يحرم تعدد الزوجات على الفقير، ويأذنون به للغني القادر!! فكان هذا سوأة السوءات أن يجعلوا هذا التشريع الإسلامي السامي وقفًا على الأغنياء، ثم لم ينفع هذا ولم يستطيعوا إصداره فاتجهوا وجهة أخرى يتلاعبون فيها بالقرآن: فزعموا أن إباحة التعدد مشروطة بشرط العدل، وأن الله سبحانه أخبر بأن العدل غير مستطاع، فهذه أمارة تحريمه عندهم إذا قصروا استدلالهم على بعض الآية وتركوا باقيها : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، وتركوا باقيها : ﴿فَلَا

﴿تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩]، فكانوا كالذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

ثم ذهبوا يتلاعبون بالألفاظ وببعض القواعد الأصولية، فسموا تعدد الزوجات «مباحًا»، وأن لولي الأمر أن يقيد بعض المباحات بما يرى من القيود للمصلحة.

وهم يعلمون أنهم في هذا كله ضالون مضلون، فما كان تعدد الزوجات مما يطلق عليه لفظ «المباح» بالمعنى العلمي الدقيق - أي - المسكوت عنه الذي لم يرد نص بتحليله أو تحريمه، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**فَمَا أَحَلَّ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ**».

بل إن القرآن نص صراحة على تحليله، بل جاء إحلاله بصيغة الأمر التي أصلها للوجوب ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، وإنما انصرف فيها الأمر من الوجوب إلى التحليل بقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾، ثم هم يعلمون - علم اليقين - أنه حلال بكل معنى كلمة «حلال» بنص القرآن وبالعمل المتواتر الواضح الذي لا شك فيه منذ عهد النبي ﷺ وأصحابه إلى اليوم، ولكنهم قوم يفترون.

وشرط العدل في هذه الآية: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣] شرط شخصي لا تشريعي.

أعني: أنه شرط مرجعه لشخص المكلف لا يدخل تحت سلطان التشريع والقضاء، فإن الله قد أذن للرجل - بصيغة الأمر - أن يتزوج ما طاب له

من النساء دون قيد بإذن القاضي أو بإذن القانون أو بإذن ولي الأمر(٨٨) أو غيره، وأمره أنه إذا خاف - في نفسه - أن لا يعدل بين الزوجات أن يقتصر على واحدة، وبالبداهة أن ليس لأحد سلطان على قلب المريد الزواج حتى يستطيع أن يعرف ما في دخيلة نفسه من خوف الجور أو عدم خوفه، بل ترك الله ذلك لتقديره في ضميره وحده، ثم علَّمه الله سبحانه أنه على الحقيقة لا يستطيع إقامة ميزان العدل بين الزوجات إقامة تامة لا يدخلها ميل، فأمره أن لا يميل «كل الميل، فيذر بعض زوجاته كالمعلقة»، فاكتفى ربه منه - في طاعة أمره بالعدل - أن يعمل منه بما استطاع، ورفع عنه ما لم يستطع.

وهذا العدل المأمور به مما يتغير بتغير الظروف، ومما يذهب ويجيء بما يدخل في نفس المكلف، ولذلك لا يعقل أن يكون شرطًا في صحة العقد، بل هو شرط نفسي متعلق بنفس المكلف وبتصرفه في كل وقت بحسبه، فرب رجل عازم على الزواج المتعدد وهو مصرٌّ في قلبه على عدم العدل، ثم لم ينفذ ما كان مُصرًّا عليه وعدل بين أزواجه، فهذا لا يستطيع أحد يعقل الشرائع أنه يدعي أنه خالف أمر ربه إذ إنه أطاع الله بالعدل، وعزيمته في قلبه من قبل لا أثر لها في صحة العقد أو بطلانه - بداهة - خصوصًا وأن النصوص كلها صريحة في أن الله لا يؤخذ العبد بما حدَّث به نفسه ما لم يعمل به أو يتكلم.

ورُبَّ رجل تزوج زوجة أخرى عازمًا في نفسه على العدل، ثم لم يفعل، فهذا قد ارتكب الإثم بترك العدل ومخالفة أمر ربه، ولكن لا يستطيع أحد

(٨٨) ليس المراد ولي المرأة، فإن النبي ﷺ قال: «**لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ**»، وقال: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ**».

يعقل الشرائع أن يدعي أن هذا الجور المحرم منه قد أثر على أصل العقد بالزوجة الأخرى، فنقله من الحل والجواز إلى الحرمة والبطلان، إنما إثمه على نفسه فيما لم يعدل، ويجب عليه طاعة ربه في إقامة العدل، وهذا شيء بديهي لا يخالف فيه من يفقه الدين والتشريع.

والقوم أصحاب هوى ركب عقولهم، لا أصحاب علم، ولا أصحاب استدلال، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويلعبون بالدلائل الشرعية من الكتاب والسنة ما وسعهم اللعب.

فمن ألاعيبهم أن يستدلوا بقصة علي بن أبي طالب حين خطب بنت أبي جهل في حياة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأن رسول الله ﷺ حين استؤذن في ذلك قال: «**لَا آذَنُ، ثُمَّ لَا آذَنُ، ثُمَّ لَا آذَنُ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ، فَإِنَّمَا هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُرِيبُنِي مَا أَرَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا**». ولم يسوقوا لفظ الحديث، وإنما لخصوا القصة تلخيصًا مُريبًا ليستدلوا بها على أن النبي ﷺ يمنع تعدد الزوجات، بل صرح بعضهم بالاستدلال بهذه القصة على ما يزعم من التحريم! لعبًا بالدين وافتراءً على الله ورسوله.

ثم تركوا باقي القصة الذي يدفع افتراءهم - ولا أقول استدلالهم - وهو قول رسول الله ﷺ في الحادثة نفسها: «**وَإِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلَالًا، وَلَا أُحِلُّ حَرَامًا، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ مَكَانًا وَاحِدًا أَبَدًا**».

واللفظان الكريمان رواهما الشيخان البخاري ومسلم.

فهذا رسول الله ﷺ المبلِّغ عن الله، والذي كلمته الفصل في بيان الحلال والحرام يصرح باللفظ العربي المبين في أدق حادث يمس أحب الناس إليه وهي ابنته الكريمة السيدة الزهراء بأنه لا يحلُّ حرامًا ولا يحرم حلالًا، ولكنه يستنكر أن تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله في عصمة رجل واحد.

وعندي وفي فهمي - القول لأحمد شاكر -: أنه ﷺ لم يمنع عليًّا من الجمع بين بنته وبنت أبي جهل بوصفه رسولًا مبلغًا عن ربه حُكمًا تشريعيًّا بدلالة تصريحه بأنه لا يحرم حلالًا ولا يحل حرامًا، وإنما منعه منعًا شخصيًّا بوصفه رئيس الأسرة التي فيها علي ابن عمه وفاطمة ابنته، بدلالة أن أسرة بنت أبي جهل هي التي جاءت تستأذنه فيما طلب إليه علي رضي الله عنه، وكلمة رئيس الأسرة مطاعة من غير شكٍّ خصوصًا إذا كان ذلك الرئيس هو سيد قريش وسيد العرب وسيد الخلق أجمعين ﷺ.

وليس بالقوم استدلال أو تحرٍّ لما يدل عليه الكتاب والسنة، ولا هم من أهل ذلك ولا يستطيعونه، إنما بهم الهوى إلى شيء معين يتلمسون له العلل التي قد تدخل على الجاهل والغافل.

بل إن في فلتات أقلامهم ما يكشف عن خبيئتهم ويفضح ما يكنُّون في ضمائرهم. **ومن أمثلة ذلك**: أن موظفًا كبيرًا في إحدى وزاراتنا كتب مذكرة أضفى عليها الصفة الرسمية ونشرت في الصحف منذ بضع سنين، وضع نفسه فيها موضع المجتهدين لا في التشريع الإسلامي وحده، بل في

جميع الشرائع والقوانين!! فاجترأ على أن يعقد موازنة بين الدين الإسلامي في إحلاله تعدد الزوجات وبين الأديان الأخرى!! زعم.

وبين قوانين الأمم الوثنية منها، ولم يجد في وجهه من الحياء ما يمنعه من الإيحاء بتفضيل النصرانية التي تحرم تعدد الزوجات، ومن ورائها التشريعات الأخرى التي تسايرها، بل يكاد قوله الصريح ينبئ عن هذا التفضيل!!.

ونسي أنه بذلك خرج من الإسلام بالكفر البواح على الرغم من أن اسمه يدل على أنه ولد على فراش رجل مسلم، إلى ما يدل عليه كلامه من جهله بدين النصارى حتى عقد هذه المفاضلة، فإن اليقين الذي لا شك فيه أن سيدنا عيسى - عليه السلام - لم يحرم تعدد الزوجات الحلال في التوراة التي جاء هو مصدقًا لها بنص القرآن، وإنما حرمه بعض البابوات بعد سيدنا عيسى عليه السلام بأكثر من ثمانمائة سنة على اليقين بما جعل هؤلاء لأنفسهم حق التحليل والتحريم الذي نعاه الله عليهم في الكتاب الكريم. ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، والذي فسره رسول الله ﷺ حين استفسر منه عدي بن حاتم الطائي - الذي كان نصرانيًا وأسلم - إذ سمع هذه الآية فقال: إنهم لم يعبدوهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»(٨٩).

---

(٨٩) قلت (مصطفى): سنده ضعيف مرفوعًا، ولكن ثبت نحوه عن حذيفة رضي الله عنه.

فيا أيها المسلمون لا يستجرينَّكم الشيطان ولا يخدعنَّكم أتباعه وأتباع عابديه، فتستخفوا بهذه الفاحشة التي يريدون أن يذيعوها فيكم، وبهذا الكفر الصريح الذي يريدون أن يوقعوكم فيه، فليست المسألة مسألة تقييد مباح أو منعه كما يريدون أن يوهموكم، وإنما هي مسألة في صميم العقيدة. أتُصرُّون على إسلامكم وعلى التشريع الذي أنزل الله إليكم وأمركم بطاعته في شأنكم كله؟ أم تعرضون عنهما - والعياذ بالله - فتتردوا في حمأة الكفر وتتعرضوا لسخط الله ورسوله ﷺ؟ هذا هو الأمر على حقيقته.

إن هؤلاء القوم الذين يدعونكم إلى منع تعدد الزوجات لا يتورع أحدهم عن اتخاذ العدد الجم من العشيقات والأخدان، وأمرهم معروف مشهور؛ بل إن بعضهم لا يستحي من إذاعة مباذله وقاذوراته في الصحف والكتب، ثم يرفع علم الاجتهاد في الشريعة والدين ويزري بالإسلام والمسلمين.

إن الله حين أحل تعدد الزوجات - بالنص الصريح في القرآن الكريم - أحله في شريعته الباقية على الدهر في كل زمان وكل عصر، وهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون فلم يعزب عن علمه ﷻ ما وقع من الأحداث في هذا العصر ولا ما سيقع فيما يكون في العصور القادمة، ولو كان هذا الحكم مما يتغير بتغير الزمان - كما يزعم الملحدون الهدامون - لنص على ذلك في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحجرات: ١٦].

والإسلام بريء من الرهبانية، وبريء من الكهنوت، فلا يملك أحد أن

ينسخ حكمًا أحكمه الله في كتابه أو في سنة رسولهﷺ ، ولا يملك أحد أن يحرم شيئًا أحله الله، ولا أن يحل شيئًا حرمه الله، لا يملك ذلك خليفة، ولا ملك، ولا أمير، ولا وزير، بل لا يملك ذلك جمهور الأمة سواء بإجماع أم بأكثرية، الواجب عليهم جميعًا الخضوع لحكم الله، والسمع والطاعة.

اسمعوا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩].

ألا فلتعلمُنَّ أن كل من حاول تحريم تعدد الزوجات أو منعه أو تقييده بقيود لم ترد في الكتاب ولا في السنة فإنما يفتري على الله الكذب.

ألا فلتعلمُنَّ أن: «كل امرئ حسيب نفسه»، فلينظر امرؤ لنفسه أنى يصدر، وأنى يرد، وقد أبلغت والحمد لله. [انتهى كلام الشيخ أحمد شاكر رحمه الله].



إن جوابنا عن كل سؤال يثيره المشغبون حول المعجزات التي أيَّد الله بها رسوله ﷺ يتمثل في قولنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

وفي قولنا: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وفي قولنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

وفي قولنا: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

فالله سبحانه وتعالى يُكرم أنبياءه بما يشاء، ويؤيدهم بما يُريد من المعجزات.

- أيدَّ الله عز وجل نبيه نوحًا عليه السلام بإرسال الطوفان على قومه الذين ظلموه وكذبوه وعاندوه، فأهلكهم وسلَّمه!!.

- أُلقي إبراهيم عليه السلام في النار، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا !!.

- فُدي إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم!!.

- وموسى الكليم عليه السلام أُيد بالعصا التي تتحول إلى حية تسعى!!. والتي ضرب بها البحر فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، والتي ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينًا، والتي ضرب بها الحجر الذي فرَّ بثوبه فأثرت في الحجر!!.

- أُيد عليه السلام بمعجزة، وهي خروج يده من جيبه بعد إدخالها منه بيضاء من غير سوء، وتلك آية أخرى.

ـ أُيد بطائفة من الآيات والمعجزات عيسى عليه السلام، كان يُبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى - بإذن الله -.

ـ ويخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا - بإذن الله -.

ـ ولقد أنطقه الله في المهد، وكلم الناس.

ـ داود عليه السلام ألان الله له الحديد، وسبحت معه الجبال وكذا الطير.

ـ سليمان عليه السلام سخرت له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد.

ـ صالح عليه السلام خرجت له ناقة عظيمة - بإذن الله - من بطن صخرة.

ـ أيوب عليه السلام ضرب برجله الأرض، فخرج ماء مغتسل بارد وشراب، فاغتسل وشرب، فشفاه الله وعاد أجمل ما كان وأحسن ما كان.

ـ مريم عليها السلام تأتيها فاكهة الصيف شتاء، وفاكهة الشتاء صيفًا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا.

إلى غير ذلك من المعجزات والآيات.

والله على كل شيء قدير.

فإذا قال قائل: كيف نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ

فجوابنا: إن الله على كل شيء قدير!!.

وكذا فهو نفس الجواب إذا سألنا سائل: كيف يحن الجذع لرسول الله ﷺ؟ وكيف يُسلم عليه الحجر؟ ويُقبل إليه الشجر؟ وينشق في زمنه القمر؟

جوابنا: إن الله يفعل ما يشاء، والله على كل شيء قدير.

وليس بعزيز على الله أن يؤيد نبيه ﷺ بمثل ذلك، بل وبأعظم من ذلك.

وكذا فهو نفس الجواب عن سؤال السائل: كيف يسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في بعض ليلة؟ وكيف يُعرج به إلى السموات؟!!

وكذا فهو نفس الجواب عن سؤال قد يطرح: كيف يُشق صدره؟ وكيف يبارك له في الطعام القليل والماء القليل حتى يكفي طعام الاثنين مائة شخص؟!!

وكيف يمسح على رجل شخص كسيرة فيعافيه في الحال؟!!

فدومًا الله على كل شيء قدير !!

والله يفعل ما يشاء.

إن بعض الكُتاب الموسومين بالإسلاميين يستحي بعضهم أن يتحدث عن معجزات النبي ﷺ ويقول: كيف أواجه الغرب الكافر بمثل هذا؟

يقول: كيف أواجه الغرب الكافر بأن الماء قد نبع من بين أصابع النبي محمد ﷺ؟

يقول: كيف أواجه الغرب الكافر بأن النبي ﷺ نادى على نخلة فأتت تشق طريقها حتى وقفت بين يديه - صلوات الله وسلامه عليه -؟

يقول: كيف أواجه الغرب بأن جذعًا قد حَنَّ للنبي ﷺ ؟ ذلكم الجذع الذي كان النبي ﷺ يقف عليه ويخطب، فلما صنع له المنبر نزل من على الجذع وصعد المنبر، فَأَنَّ الجذع أنينًا وحَنَّ حنينًا إلى أن نزل النبي ﷺ فاحتضنه وأسكته كما يُسكَّت الصبي الصغير أمام الناس كلهم.

فيقول المناظر: كيف أواجه الغرب الكافر بذلك؟

أما جوابنا الأصيل فهو: إن الله على كل شيء قدير.

فالذي يجعل الجذع ينطق هو الله، والذي يجعله يسكن هو الله، والذي يجعل الماء ينبع من بين الأصابع هو الله، والذي قال لأيوب عليه السلام: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي اضرب الأرض برجلك، فتفجرت الأرض ينابيع، والضرب بالرجل ماذا عساه أن يجدي؟ إنه لا يجدي بشيء ولا ينفع بشيء، لكن جعل الله الماء يتفجر، جعله الله مغتسلًا باردًا وشرابًا.

وهو الذي جعل الرطب الجني يتساقط على مريم عليها السلام، وقد أمرت أن تهز إليها بجذع النخلة، وماذا عساه أن ينفع هزها بيديها لجذع النخلة؟ لكنه سبب أُمرت به، والذي جعل الرطب الجني يتساقط هو الله.

وماذا عساها أن تنفع عصا موسى لما ضرب بها البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، ولما ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينًا،

وعندما ضرب بها الحجر الذي هرب بثوب موسى فتوقف الحجر بسبب الضرب، وظهرت به آثار العصا، ما الذي مَكَّن له ذلك وأيده بذلك؟

إنه الله وحده!!! وماذا عسى أن تصنع يد داود عليه السلام مع الحديد الذي ألانه الله له؟!!

وكذلك ماذا صنع سليمان حتى أسال الله له عين القطر - أي تفجرت له عين النحاس -.

كل ذلك حدث بقدرة الله.

فجواب المسلم منا عن مثل هذه المعجزات وغيرها: «أن الله على كل شيء قدير».

قد يأتي كافر ساخر مجرم أثيم يسخر من هذه المعجزات، ولكن جواب الطفل من المسلمين الذي لُقِّن الإيمان وعلمه: أن الله على كل شيء قدير.

فالذي رزق مريم عليها السلام بفاكهة الشتاء صيفًا، وفاكهة الصيف شتاءً، والذي أحيا الأموات على يد المسيح عيسى عليه السلام قادر على ما ذكر، وقادر على أعظم مما ذكر. ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

فلذا فلا نستحي أبدًا، ونحن نتحدث عن معجزات نبينا محمد ﷺ وعما أيده الله به من انشقاق القمر وإذعان الأشجار إليه، وتسليم الأحجار عليه، وشفاء المرض العاجل على يديه، لا نستحي أبدًا ونحن نذكر ذلك،

فربنا - جل وعلا - على كل شيء قدير.

نقول ذلك ونعلنها للناس: اشهدوا بأنا مسلمون، لا نتوارى بديننا، ولا نختفي بديننا، بل نظهر شريعتنا كما أمرنا ربنا، وكما أمرنا نبينا - عليه الصلاة والسلام -.

ففي رسالته ﷺ إلى هرقل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

اعلنوها أيها المسلمون، قولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وكما قال ربكم سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [المائدة: ١٦٢، ١٦٣].

جوابنا عن كل شبهة تاريخية يُثيرها المشغبون وأهل الشبهات:

أن ما أخبر الله ﷻ به أصح وأصدق مما أخبرت به كتب التاريخ، ولا مقارنة أصلًا.

فمن أصدق من الله قيلا؟!! ومن أصدق من الله حديثًا؟!!

فإذا أخبر الله بأمر وأخبرت كتب التاريخ بخلافه، فكلام كتب التاريخ مردود، وأمرها مرفوض، والقول ما قاله الله ربنا وخالقنا.

وما أحسن الجواب الذي أجاب به نبي الله موسى عليه السلام إذ سأله فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

ولقد قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣].

فالله يعلم كل شيء، ونحن لا نعلم إلا ما علمنا الله إياه!!.

فهذا جوابنا الإجمالي عن كل ما يثيره المشغبون أهل الشبهات والشهوات، وأهل الكفر والشقاق والنفاق.



هذا؛ وبين يدي الختام

أُذكِّر نفسي وإخواني أهل الإيمان بأن الهداية من الله ﷻ، وقد شاء الله وقدر أن يكون من الخلق فريق في الجنة وفريق في السعير، ولقد ذرأ الله لجهنم كثيرًا من الجن والإنس!!

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

فلهذا ولغيره، ولهذه النصوص ولغيرها، وبعد أن سُقت ما سُقت مما يكون فيه قناعة لأهل الإيمان أقول - وبالله التوفيق:

قد يستمر مجادل من الأهل الباطل في جداله، وغوي في غوايته، ويقوم كافر على كفره، ذلك كله لأن الهادي هو الله، ونحن - ومهما أوتينا من علمٍ وبيانٍ وحُسن عرضٍ وطلاقة لسانٍ - لن نستطيع أن نوفق أحدًا كُتبت عليه الغواية.

ونحن نعلم تمام العلم أن الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أعقل الخلق وأذكى الخلق، وأحسنهم أسلوبًا، وأجملهم بيانًا، وأحلمهم على جاهل، وأرأفهم بضعيف، وأصبرهم على باغٍ، ومع ذلك كله لا يملكون لأحد توفيقًا، إذ التوفيق بالله ومن الله.

فهذا نبي الله نوح عليه السلام ينادي ولده وينادي ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، فيقول ولده الغوي المبين: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: ٤٣].

وكذا هذا النبي الكريم أيضًا مع زوجته لم يستطع لها هداية ولا توفيقًا، بل ضُربت زوجته مثلًا للذين كفروا.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: ١٠].

وكذا الخليل إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر لم يستطع له هداية، بل يعظ ويُذكر ويعظ ويُذكر، وفي نهاية الأمر يقول له آزر: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٦].

ورسولنا الكريم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - يكرر على عمه أبي طالب: يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله.

فيقول أبو طالب: هو على ملة عبد المطلب.

فحقًّا إن الهداية من الله!!، يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين.

وصدق الله إذ قال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [المائدة: ١٤٩].

ومن ثَمَّ فلا نأسى ولا نأسف ولا تذهب أنفسنا حسرات، ولا تنقطع قلوبنا على قوم أعرضوا عن الإيمان، فربهم أعلم بهم.

وحينئذ وبعد بذل الجهد والنصح، وبعد التذكير وإزالة الشبهات، وإزاحة الشكوك، ومع دعاء الله ﷻ بالهداية والتوفيق ماذا علينا؟

يقول الله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: ١٠٥].

فلنُقبل على ديننا، وعلى إيماننا، ولنصلح من شئوننا، ولنتق الله ما استطعنا، ولنسأل الله الثبات على ديننا.

واعلموا أيها الأخوة - بارك الله فيكم -:

أن لعلمنا حدودًا، ولعقولنا طاقات وقدرات لا نتعداها ولا نتجاوزها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

ولقد قال الخضر لموسى عليهما السلام: «وَاللَّهِ مَا عِلْمِي وَمَا عِلْمُكَ فِي جَنْبِ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا الطَّائِرُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ»(٩٠).

فإذا نحن سلمنا بذلك، ولله الحمد مسلِّمون ومستسلمون على الدوام إن شاء الله، فحينئذ سنعرف قدرنا، وقدر عقولنا. فَثَمَّ أسئلة لا تتحملها عقولنا فنكل الجواب والعلم إلى الله ﷻ.

ولقد سُئلت الملائكة عن أسماء بعض الأشياء، فقالوا: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

ولقد سُئل النبي ﷺ عن الروح، فنزل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥](٩١).

وقال ﷺ لما سأله جبريل عن الساعة: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(٩٢).

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

---

(٩٠) البخاري (حديث ١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٩١) وسبب النزول هذا أخرجه البخاري (٤٧٢١) وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عَسِيبٍ، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ. فَقَالَ: مَا رَأْيُكُمْ إِلَيْهِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ. فَقَالُوا: سَلُوهُ. فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

(٩٢) مسلم (حديث ٨).

ولقد قال الله سبحانه وتعالى في شأن أصحاب الكهف: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢].

وقال نبي الله موسى عليه السلام لما سأله فرعون قائلًا: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾، فقال موسى عليه السلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١، ٥٢].

وقال ﷻ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾ [آل عمران: ٦٦].

فبعد هذا الذي قد ذُكر قد تأتينا أسئلة لا علم لنا بها، ولا بجوابها.

فامتثالًا لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦].

نقف عن الخوض فيما لا علم لنا به.

قد يأتي الشيطان شخصًا فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟... حتى يقول له: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟!!

فإذا بلغنا ذلك فلنستعذ بالله ولننته، ولا نسترسل في التفكير.

وقد ورد في ذلك حديث(٩٣) أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» وفيه: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولَ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟... حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ؛ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ**».

(٩٣) البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم في طرق حديث (١٣٤).

وقد أخرج مسلم في «صحيحه»[٩٤] من حديث أبي هريرة ﷺ قال: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ».

وإن كان ثَمَّ جواب، فلنذكر قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

وقول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»[٩٥].

وقد ورد عن ابن عباس ﷺ أثر في هذا الصدد أخرجه أبو داود[٩٦] بسند حسن وفيه: أن أبا زميل سأل ابن عباس فقال: مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي. قَالَ: مَا هُوَ؟ قُلْتُ: وَاللَّهِ مَا أَتَكَلَّمُ بِهِ.

قَالَ: فَقَالَ لِي: أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ؟ قَالَ: وَضَحِكَ. قَالَ: مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ. قَالَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] الْآيَةَ.

---

(٩٤) مسلم (١٣٢). والمراد: أن كتمان هذا وعدم التحديث به محض الإيمان، وقال النووي: معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به، فصلًا عن اعتقاده، إنما يكون من من استكمل الإيمان استكمالًا محققًا، وانتفت عنه الريبة والشكوك.

(٩٥) مسلم (٢٧١٣).

(٩٦) أبو داود (٥١١٠).

قَالَ: فَقَالَ لِي: إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

فأحيانًا أيها الأخوة تلوح لنا وجوه الأجوبة على الأسئلة والشبهات التي يطرحها أهل العناد، وأحيانًا لا يكرن لنا علم في ذلك؛ لأننا بشرٌ.

أما علمنا بأن الله واحد لا شريك له، فقد علمناه جميعًا، وأيقنا به، وصدقنا - والحمد لله على ذلك -.

وعلمنا - أيضًا والحمد لله - أن القرآن نزل من عند الله ﷻ، وأيقنا كذلك بأن محمدًا رسول الله ﷺ لا نشك في ذلك ولا نتردد.

فقد يخفى على شخص منا وجه الجمع بين آيتين، فإذا حدث ذلك، وقد علمنا أن فوق كل ذي علم عليم، فيلزمنا أن نسأل من أهو أعلم، وقد قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وكما تقدم فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ولقد أحسن الشاعر إذ قال:

وإذا تعذر فهم نصٍّ غامضٍ فاستفت أهل الذكر كالمسترشد

فدومًا نسأل أهل الذكر عما أُشكل علينا.

وليس لنا أن نخوض في مراءٍ ولا في جدال في كل وقت وحين.

فلما جاء المشركون يجادلون الرسول ﷺ في القدر، ماذا قال رسول الله ﷺ؟ وماذا نُزِّل عليه؟

ما استطرد معهم في الجدل، بل نزل: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٨، ٤٩].

كأنك تقول لشخص: اضرب رأسك في الحائط، فكل شيء سيكون ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾

فليس الاسترسال في الجدل بسبيل مقيم في كل الأحوال، بل أحيانًا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم: ٢٩]، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

إن الرسول ﷺ لم يسترسل في الجدال في كثير من الأحيان - عليه الصلاة والسلام - بل سكت في كثير من الأحيان، ولم يخض مع القوم فيما أرادوه، بل أُمِرَ بألا يرد أحيانًا، وأمر بأن يقول لهم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا﴾ معلنين عن وجهتكم، عن ملتكم، عن دينكم: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فهكذا أيها الأخوة! ينبغي أن نقبل في هذه الأزمان، بل في كل وقت وكل حين على كتاب ربنا وعلى سنة نبينا، وعلى أقوال علمائنا نستمد من ذلك الإيمان والعلم والرفعة والدرجات.

ونحن في كل ذلك مثابون - إن شاء الله -، فالتفقه في الدين لا يضيع أجر فاعله، فكما أننا نُثاب على صلاتنا، ونُثاب على صيامنا، ونثاب على حجنا وعمرتنا؛ نُثاب كذلك على تعلُّم العلم الشرعي.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وفي الحديث: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تقرؤُهَا» (٩٧)

وقال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وفقنا الله وإياكم للتمسك بكتابه، وسنة نبينا محمد ﷺ

ورفع الله راية الإسلام والمسلمين عالية فوق كل الرايات، وجمع الله المسلمين على كتابه وعلى سنة نبيه محمد.

هدانا الله وإياكم سُبل السلام، وأخرجنا وإياكم من الظلمات إلى النور.

وصلِّ اللهم على نبينا محمد وسلم، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبد الله

مصطفى بن العدوي

مصر – الدقهلية – منية سمنود

---

(٩٧)أبو داود (٢/ ١٥٣) بسند حسن، وأخرجه أيضًا الترمذي (٨/ ٢٣٢) وقال: حسن صحيح، وأحمد في «المسند» (٢/ ١٩٢).

فهرس المحتويات

دار الصحابة
٢٩٩٩٥٢٧ - ٠١٠٦٦٩٥٧٤٣